اليهود في القرآن الكريم

سيرتهم وأخلاقهم واحوالهم قبل البعثة . وجنسية اليهود في الحجاز في زمن النبي ﷺ . واحوالهم واخلاقهم ومواقفهم من الدعوة الاسلامية ومصيرهم

بقلم
محمد عزة دروزة

المكتب الاسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة بين يدي هذه الطبعة :

كتبنا هذه الرسالة في سنة ١٩٤٨ ، وطبعناها في دمشق في سنة ١٩٤٩ بعنوان : « القرآن واليهود » بقطع صغير ، وراجت ونفدت طبعتها . ووسعناها ، وألحقناها بكتابنا « تاريخ بني اسرائيل من أسفارهم » في طبعته الجديدة في صيدا سنة ١٩٦٦ ، وجعلنا عنوانه « تاريخ بني اسرائيل من أسفارهم وأحوال وأخلاق ومواقف اليهود في عصر النبي ﷺ من القرآن الكريم » .

والرسالة مطلوبة بحوثها كثيراً . وقد اقترح غير واحد من إخواننا طبعها منفردة ، فاستجبنا للاقتراح ، وها هي بين يدي القارئ ـ والحمد لله ـ آملين أن يكون فيها النفع للمسلمين ، ولقضية فلسطين التي غدت قضية الإسلام والعروبة الكبرى .

وقد كنا ألحقنا بالرسالة التي ألحقناها بتاريخ بني اسرائيل من أسفارهم بعض استدراكات ، فأبقيناها لأنها مفيدة ، وضرورية في بابها . ولقد رأى الناشر أن يطبعها بالتصوير بدلاً من الصف ، فجاءت طبق الأصل الذي ألحق بذلك الكتاب .

والله الموفق إلى ما فيه الخير ، ونسأله العون والسداد ...

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

شغل اليهود وبنو إسرائيل في القرآن حيزاً كبيراً سواء منه المكي أم المدني . حتى لقد ورد ذكرهم تصريحاً أو تلميحاً . ومسهباً او مقتضباً في خمسين سورة .

والمتمعن في ما ورد فيهم يجد ان ما ورد فيهم في القرآن المكي هو في الأغلب في صدد قصصهم السابقة للبعثة النبوية من لدن وجودهم في مصر وبعثة موسى عليه السلام وبعدها . ومنه ما فيه إشارة صريحة الى موقف بعضهم من الدعوة النبوية في عهدها المكي كما ان منه ما فيه اشارة مطلقة يدخلون في نطاقها في سياق ذكر الكتابيين ومواقفهم من الدعوة المذكورة .

وما جاء في صدد قصصهم السابقة في القرآن المكي خلا إجمالا من العنف ولكن بعضه احتوى تنديداً ببعض ما كان لهم من مواقف تمرد وتعجيز وقفوها من موسى عليه السلام وببعض ما كان لهم من مواقف غير مستحبة بعد موسى عليه السلام أيضاً وفي بعض الآيات المكية عنهم اشارة إلى إيمان بعضهم وشهادتهم بصدق الرسالة المحمدية وصدق الوحي القرآني . واستشهد في بعضه بما يدخلهم في نطاقه أي بأهل الكتاب والعلم على صدق هذه الرسالة بأسلوب يشف عن اليقين بحسن الشهادة . ونوه في بعضه بما يدخلهم في نطاقه أي بأهل العلم والكتاب

وأشير في بعضه إلى ما هم عليه من خلاف وما احتواه القرآن من تصويب لما اختلفوا فيه كما هو في الأمثلة التالية :

اولا : امثلة من الآيات القصصية :

١ - وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلاهاً كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون . إن هؤلاء متبّر ماهم فيه وباطل ما كانوا يعملون . قال أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين . وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العـذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم .

سورة الأعراف ١٣٨-١٤١

٢ - واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسداً له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين . ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين . ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بئس ما خلفتموني من بعدي أعجلتم امر ربكم وألقى الألواح واخذ برأس اخيه يجره اليه قـال ابن ام ان القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني في القوم الظالمين . قال رب اغفرلي ولأخي وادخلنا في رحمتك وأنت ارحم الراحمين . ان الذين اتخـذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين . والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفوررحيم . ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون . واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما اخذتهم الرجفة قال رب لو شئت اهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاءمنا إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء انت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وانت خير الغافرين .

سورة الأعراف ١٤٧-١٥٥

٣ - وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلا . ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً . وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً . فاذا جاء

وعد اولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا اولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا . ثم رددنا لكم الكرة عليهم وامددناكم بأموال وبنين وجعلناكم اكثر نفيراً . إن احسنتم احسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فاذا جاء وعد الآخره ليسؤوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيراً . عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً .

سورة الإسراء ٢ — ٨ (١)

وثانياً : امثلة في التنويه بهم مع الإشارة الى اختلافاتهم :

١ — وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين . إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل اكثر الذي هم فيه يختلفون . وانه لهدى ورحمة للمؤمنين إن ربك يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العليم .

سورة النمل ٧٥ — ٧٨

٢ — ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه وجعلناه هدى لبني إسرائيل . وجعلنا منهم ائمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون . إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة في ما كانوا فيه يختلفون .

سورة السجدة ٢٣ — ٢٥

٣ — ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين . وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون .

سورة الجاثية ١٥ — ١٦

وثالثاً : امثلة من الآيات المكية التي تشير إلى مواقفهم وتستشهد بهم وتذكر إيمانهم وتصديقهم :

١ — أفغير الله أبتغي حكما وهو الذي أنزل اليكم الكتاب مفصلا والذين

---

(١) اكتفينا بهذه الامثلة القصيرة . وفي سورة الاعراف ويونس ويوسف وطه والشعراء والنمل والقصص وغافر سلاسل طويلة في قصص بني اسرائيل جاءت بنفس الأسلوب الحالي من المنف .

آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين.

الأنعام ١١٤

٢ – الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عنـــدهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا بـه وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون .

الأعراف ١٥٦

٣ – فإن كنت في شك مما أنزلنا اليـــك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين .

يونس ٩٤

٤ – والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما انزل اليك ...

الرعد ٣٦

٥ – ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحوراً .

سورة الإسراء ١٠٠

٦ – قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للاذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا. ويخرون للاذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً.

سورة الإسراء ١٠٧–١٠٨

٧ – وإنه لفي زبر الأولين . أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل،

سورة الشعراء ١٩٦ – ١٩٧

٨ – الذين آتيناهم الكتاب من قبلهم به يؤمنون . وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا . إنا كنا من قبله مسلمين .

سورة القصص ٥٢ – ٥٣

٧ – قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين .

سورة الأحقاف ١٠

هذا في حين ان الوارد فيهم في القرآن المدني هو على الأغلب في صددمواقفهم من الدعوة النبوية مع ربطها بما كان من آبائهم من مواقف حجاج وتمرد وانحراف بقصد تقرير توارث الجبلة الأخلاقية بين الآباء والأبناء المعاصرين وفيه حملات لاذعة وتقريعات عنيفة على تلك المواقف كما هو في الأمثلة التالية :

١ – وإذا قتلتم نفساً فادّارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون . فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون . ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون . . أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون . ومنهم اميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون . فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون .

سورة البقرة ٧١ – ٧٩

٢ – ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده الرسل وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى انفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون . وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون . ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين . بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباؤوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين . وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما نزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين . ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون . وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا

وعصينا واشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين .

سورة البقرة ٨٧ — ٩٣

٣ — ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل . والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً . من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا لياً بألسنتهم وطعناً في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا . يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل ان نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا . إن الله لا لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيما . ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلا. انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثماً مبيناً . ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا . أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً .

سورة النساء ٤٤ — ٥٢

٤ — مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين . قل يا ايها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين . قل ان الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون .

سورة الجمعة ٥ — ٨ [١]

ما تلهمه الأمثلة :

ويستلهم من الأمثلة المكية انه لم يكن في مكة يهود كثيرون وانما كان أفراد

---

(١) اكتفينا بهذه الامثلة التي هي قليل من كثير من امثالها في سورة البقرة وآل عمران والمائدة .

مستقرون أو أفراد يترددون عليها أو أفراد من النوعين [1] . وكانت الدعوة النبوية دعوة إلى توحيد الله الذي يدين به اليهود . وإلى الاعتراف بالكتب المنزلة والأنبياء السابقين الذين كان جلهم من بني إسرائيل والذين كان اليهود يقدسونهم ولم يخطر ببالهم أن تقوى حتى تصبح شاملة . ولم يكن مجال أو إمكان للاصطدام بينهم وبين النبي في مكة تظهر فيه جبلتهم واخلاقهم . فلم يقابلوا الدعوة بالتجهم والمناوأة بل قابلوها بالارتياح والترحيب والتصديق . فكانت الآيات المكية فيهم غير عنيفة ومنها ما كان فيه تنويه وإشادة واستشهاد بهم . أما في المدينة فقد كان أمرهم مختلفاً حيث كانوا كتلة كبيرة وكان لهم مصالح عظيمة . ومركز ديني وسياسي واجتماعي واقتصادي ممتاز . فلما هاجر النبي ﷺ اليها واخذ يقوى استشعروا الخطر على مصالحهم ومركزهم فكان موقفهم من الدعوة موقف التجهم ثم المناوأة ثم العداء وظهرت خلال ذلك جبلتهم الاخلاقية فاقتضت حكمة التنزيل ان يتبدل الأسلوب القرآني فيهم .

• والكلام في هذا القسم سوف يتناول ظرفين . الأول ما تدل عليه الآيات القرآنية من أحوال اليهود وبني اسرائيل واخلاقهم وسيرتهم قبل البعثة النبوية . والثاني ما تدل عليه من ذلك في زمن النبي ﷺ وبخاصة في الحجاز ومواقفهم من الدعوة النبوية والمصير الذي صاروا اليه نتيجة لذلك .

— ٢ —

أولا : احوال بني اسرائيل واخلاقهم وسيرتهم قبل زمن النبي صلى الله عليه وسلم .

(١) في سورة يوسف هذه الآيات :

« إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت احد عشر كوكباً والشمس والقمر

---

(١) آيات الانعام ١١٤ ويونس ٩٤ والرعد ٣٦ والاسراء ١٠٧ – ١٠٨ والقصص ٥٢ – ٥٣ لاتذكر حقاً هوية اهل العلم واهل الكتاب . ولكن اشتمالها على اليهود محتمل مثل احتمال اشتمالها على النصارى . وآيات الشعراء ١٩٦ – ١٩٧ والنمل ٧٦ التي تأمر النبي بسؤال بني اسرائيل تسوغ القول بقوة ان من هؤلاء من كان يقيم في مكة . وآية الاعراف ١٥٧ وآية الأحقاف ١٠ صريحة باسلام بعض بني إسرائيل في مكة . وبالتالي ان منهم من كان في مكة .

رأيتهم لي ساجدين . قال يا بني لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للانسان عدو مبين . وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل ابراهيم واسحق ان ربك عليم حكيم . لقد كان في يوسف واخوته آيات للسائلين . إذ قالوا ليوسف واخوه احب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين . اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين . قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين . قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون. أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون . قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذن لخاسرون . فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب وأوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون . وجاؤوا أباهم عشاء يبكون . قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين . وجاؤوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » . ٤ — ١٨

و (إسرائيل) هو اسم ثان ليعقوب أبي يوسف عليهما السلام على ما جاء في سفر التكوين . فتكون هذه الآيات عائدة إلى بني إسرائيل . وفيها كما هو واضح صورة من حقد معظم أبناء يعقوب على أخيهم يوسف وحسدهم له والغدر به والكذب على أبيهم فيما كان منهم من خطة هذا الغدر واحتيالهم عليه .

(٢) وفي السورة نفسها هذه الآيات :

١ — اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين . ٩٣

٢ — فلما دخلوا على يوسف آوى اليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين . ٩٩

وفيها خبر نزوح يعقوب وذريته إلى مصر .

(٣) في سورة البقرة هذه الآية :

وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون

نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم . ٤٩

والخطاب موجه إلى بني اسرائيل في زمن النبي صلعم في مقام التذكير بما كان من نعم الله على آبائهم وما كان من تاريخ ومواقف أولئك الآباء. وقد تكرر هذا الأسلوب كثيراً بقصد ربط أخلاق ومواقف اليهود وبني اسرائيل في زمن النبي ﷺ بأخلاق ومواقف آبائهم للتدليل على وحدة الجبلة واستمرارها . وفي الآية صورة لما كانوا يسامونه من سوء العذاب في مصر من قبل فرعون وقومه .

وقد تكررت حكاية هذه الصورة في آيات عديدة اخرى كما ترى في ما يلي :

١ — وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم .

سورة الأعراف ١٤١

٢ — وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم .

سورة إبراهيم ٦

٣ — إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين .

سورة القصص ٤

وهذه الصورة كانت قبل بعثة موسى عليه السلام . وفي سورة الأعراف آيات تفيد انها استمرت بعد بعثته أيضاً كما ترى فيما يلي :

١ — وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون.

سورة الأعراف ١٢٧

٢ — قالوا اوذينا من قبل ان تأتينا ومن بعد ما جئتنا ..

سورة الأعراف ١٢٩

٣ — فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملأهم أن يفتنهم وإن فرعون لعال في الأرض وانه لمن المسرفين .

سورة يونس ٨٣

(٤) وفي سورة البقرة هذه الآية :

واذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وانتم تنظرون .

٥٠

وفيها بيان لكيفية خروج بني اسرائيل من مصر . ولقد تكررت حكاية ذلك في آيات اخرى ببعض الزيادات كما ترى فيما يلي :

١ — وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً حتى اذا أدركه الغرق قال آمنت انه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين .

يونس ٩٠

٢ — ولقد أوحينا الى موسى أن اسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى. فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليمّ ماغشيهم واضل فرعون قومه وماهدى. يا بني اسرائيل قد انجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى . كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى .

طه ٧٧ — ٨١

٣ — وأوحينا الى موسى ان أسر بعبادي انكم متبعون . فأرسل فرعون في المدائن حاشرين . ان هؤلاء لشرذمة قليلون . وانهم لنا لغائظون . وانا لجميع حاذرون . فأخرجناهم من جنات وعيون . وكنوز ومقام كريم . كذلك وأورثناها بني اسرائيل . فاتبعوهم مشرقين . فلما ترا آى الجمعان قال اصحاب موسى انا لمدركون . قال كلا ان معي ربي سيهدين . فأوحينا الى موسى ان اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم . وأزلفنا ثم الآخرين. وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخرين .

الشعراء ٥٢ — ٦٦

(٥) — وفي سورة البقرة هذه الآيات :

واذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وانتم ظالمون .

سورة البقرة ٥١

وفي الآية صورة لمسارعة بني اسرائيل في حياة موسى الى الانحراف عن

توحيدالله الذي وصى الله به موسى وابلغه موسى الى قومه بأمر الله وشدد عليهم فيه وعبادتهم العجل في زمن موسى وقبل ان مضى فترة طويلة على التبليغ . وفي اسلوب الآية ربط بين غابرهم وحاضرهم .

وقد تكررت حكاية هذه الصورة كما نرى في الآيات التالية :

١ — ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وانتم ظالمون . واذ اخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به ايمانكم ان كنتم مؤمنين .

سورة البقرة ٩٢—٩٣

(٦) وفي سورة البقرة هذه الآية :

واذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وانتم تنظرون : ٥٥

وفي الآية موقف تعجيزي من بني اسرائيل لموسى وبيان لما كان من نكال الله لهم على ذلك . وفي الآية ربط بين مواقف بني اسرائيل من رسالة النبي صلعم ومواقف آبائهم . وفي سورة النساء آية فيها توضيح وتدعيم لذلك وهي (يسألك اهل الكتاب ان تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى اكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ماجاءتهم البينات ١٥٣)

وفي سورة الأعراف آية فيها على ما جاء في كتب التفسير صورة لنكال الله المذكور في الآيتين . وهي : (واختار موسي قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما اخذتهم الرجفة قال رب لو شئت اهلكتهم من قبل واياي ١٥٥)

٢ — واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسداً له خوار ألم يروا انه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين .

سورة الأعراف ١٥٨

٣ — قال فانا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري . فرجع موسى الى قومه غضبان اسفا قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً افطال عليكم العهد فأخلفتم موعدي . قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزاراً من زينة

القوم [١] فقذفناها فكذلك ألقى السامري . فأخرج لهم عجلا جسداً له خوار فقالوا هذا الهكم واله موسى فنسي . افلا يرون ألا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً . ولقد قال لهم هرون من قبل يا قوم انما فتنتم به وان ربكم الرحمن فاتبعوني واطيعوا امري . قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى [٢] .

سورة طه ٨٥–٩١

وفي آيات سورة البقرة ٩٢ – ٩٣ ما يفيد ان عبادة العجل ظلت راسخة في نفوسهم واستمرت في أجيالهم [٣] . وفيها كذلك صورة أخرى وهي مجاهرتهم لموسى بأنهم سمعوا ولكنهم يعصون !

(٧) وهناك آيات فيها عقوبة ربانية أو إنذار لبني إسرائيل بسبب اتخاذهم العجل كما ترى فيما يلي :

١ – وإذ قال موسى لقومه انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم انه هو التواب الرحيم .

سورة البقرة ٥٢

٢ – إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين .

سورة الأعراف ١٥٢

(٨) وفي سورة البقرة هذه الآية :

---

(١) في الجملة اشارة الى ما اخذوه من المصريين حين خروجهم من حلى بطريق الاستعارة وهو ما ذكر في سفر الخروج وأوردناه قبل .

(٢) ان سفر الخروج يذكر ان هارون هو الذي صنع العجل والقرآن يكذب ذلك ويقرر انه السامري وهو الاصدق . ونعتقد انه كان في يد اليهود قراطيس تذكر ما ذكرة القرآن .

(٣) مصداق ذلك ما جاء في الاصحاح (١٢) من سفر الملوك الأول – الثالث من خبر صنع بريعام عجلين من ذهب وقوله لبني إسرائيل هذه آلهتكم التي اخرجتم من مصر وحمله اياهم على الذبح والتعميد عندها واستجابتهم لذلك .

افتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعدما عقلوه وهم يعلمون . ٧٥

والآية تخاطب النبي والمؤمنين في صدد مواقف اليهود الجحودية لرسالة النبي ﷺ وفيها صورة لما كان من آبائهم الأقدمين حيث كانوا يحرفون كلام الله وهم يعلمون انما يفعلونه تحريف .

(٩) وفي السورة نفسها هذه الآيات :

« ومنهم اميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون . فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون . وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة قل اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون » . ٧٨—٨٠

والآيات وإن كانت في صدد مواقف اليهود من الرسالة النبوية فإن فيها صور لما كانوا اعتادوه قبل بعثته وامتد فيهم إلى ما بعد البعثة من تدليس في كتاب الله وتفاخر بالاختصاص الرباني لهم كذباً .

وقد تكررت حكاية الصورة الثانية عنهم في آية سورة آل عمران هذه : (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون . ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون . ٢٣—٢٤

(١٠) — وفي سورة البقرة والأعراف هذه الآيات :

١ — وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون .

البقرة ٥٨—٦٠

٢ — وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين . فبدل الذين ظلموا

منهم قولاً غير الذي قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون .

الأعراف ١٦١–١٦٣

وفي الآيات صورة لما كان من مخالفتهم لأوامر الله تعالى ووصاياه رغم ما كان له عليهم من نعم وأفضال . وبيان بما كان نكال الله للظالمين منهم الذين بدلوا وخالفوا .

(١١) – وفي سورة البقرة هذه الآية :

« وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله ذلكم بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » . ٦١

وفي الآية صورة تعجيزية لله وموسى من بني إسرائيل . وبالإضافة إلى ذلك صورة اخرى لكفرهم المستمر بآيات الله وقتلهم أنبياءه . وقد احتوت الآية تنديداً لهم على تعجيزهم وبياناً بما كان من ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة واستحقاقهم لغضبه بسبب تصرفاتهم المذكورة في الآية .

(١٢) – وهناك آيات اخرى فيها الصورة الإضافية التي في الآية كما ترى فيما يلي :

١ – ولقد آتينا موسى الكتاب وقضينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس افكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون .

البقرة ٨٥

٢ – وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما انزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم قل فلم تقتلون انبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين .

البقرة ٨٧

٣ – ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباؤوا

بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون .

آل عمران ١١٢

٤ – الذين قالوا ان الله عهد الينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين .

آل عمران ١٨٣

٥ – فبما نقضهم ميثاقهم و كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق .

النساء ١٥٥

٦ – لقد أخذنا ميثاق بني اسرائيل وأرسلنا اليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون .

المائدة ٧٠

وفي بعض الآيات ربط بين اخلاق بني اسرائيل ومواقفهم في زمن النبي ﷺ ومواقف آبائهم الأقدمين من قبل . وروح الآيات تدل على أن كفرهم بآيات الله وتكذيبهم لأنبيائه وقتلهم إياهم كان يتكرر من آن لآخر بعد موسى عليه السلام .

(١٣) – وفي سورة البقرة هذه الآيات :

« وإذا أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون . ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين . ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين . فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين .

٦٣–٦٦

وفي الآيات اولا صورة لما كان من نقضهم ما كان يأخذه الله عليهم من مواثيق . وثانياً صورة لنكال الله بفريق منهم خالفوا وصايا الله واعتدوا في يوم السبت .

والآيات في توجيهها الخطاب لليهود في زمن النبي ﷺ تربط كسابقاتها بين مواقف هؤلاء من الرسالة النبوية ومواقف آبائهم السابقين .

وهناك آيات عديدة أخرى تكررت فيها حكاية الصورتين . منها ما جاء في آيات سبق ايرادها . ومنها الآيات التالية :

١ – يا أيها الذين اوتوا الكتاب آمنوا بما انزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها او نلعنهم كما لعنا اصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا .

النساء ٤٧

٢ – ولقد اخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقال الله إني معكم لئن اقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم واقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك فقد ضل سواء السبيل . فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلناقلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم . . .

المائدة ٢– ١٣

٣ – قل هل انبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت اولئك شر مكاناً واضل عن سواء السبيل .

المائدة ٦٠

٤ – واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر اذ يعدون في السبت اذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون . واذ قالت امة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم او معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة الى ربكم ولعلهم يتقون . فلما نسوا ما ذكروا به انجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون . فلما عتوا عما نهوا قلنا لهم كونوا قردة خاسئين . واذ تأذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ان ربك لسريع العقاب وانه لغفور رحيم .

الأعراف ١٦٣–١٦٧

٥ – فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وان يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب

ألا يقولوا على الله الا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون افلا تعقلون .

الأعراف ١٦٩

وفي الآيات تسجيل للعنة الله عليهم وجعله قلوبهم قاسية بسبب نقضهم مواثيقه . وتذكير بنكال الله في الذين اعتدوا في السبت وفي آيات الأعراف صورة لاحتيالهم في يوم السبت وتوضيح لمدى ما جاء في الآيات الأخرى من حكاية اعتدائهم فيه ونعتهم بأصحاب السبت . وفيها صورة اخرى لما كان من استمرارهم في نقض ميثاق الله واستغلالهم كتابه في اعراض الدنيا وما كان من تشتيت الله لهم في الأرض وايذانه بأن يرسل عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوءالعذاب نكالا لهم على ذلك مما يرى الناس منذ مئات السنينمصداقه في كل مكان .

(١٤) — وفي سورة البقرة هذه الآيات :

« واذ قال موسى لقومه ان الله يأمركم ان تذبحوا بقرة قالوا اتتخذنا هزواً قال اعوذ بالله ان اكون من الجاهلين . قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي قالانه يقول انهابقرةلافارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون . قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال انهيقول انها بقرةصفراء فاقع لونها تسر الناظرين. قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ان البقر تشابه علينا وانا ان شاء الله لمهتدون. قال انه يقول انها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لا شية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون . واذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون . فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون . ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة او أشد قسوة وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون » .

٦٧ — ٧٤

وفي الآيات صورة للجاج اليهود وتعجيزهم لموسى عليه السلام وما كان من قسوة قلوبهم التي وصفت في الآيات اقوى وصفاً نتيجة لذلك . وقد ربطت الآيات بين مواقف اليهود تجاه النبي ﷺ ومواقف آبائهم الأولين لابرازاستمرار

تلك الاخلاق والجبلة فيهم .

(١٥) — وفي سورة البقرة هذه الآية :

« كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه الا الذين اوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم ... ٢١٣

وبنو اسرائيل يدخلون في نطاق جملة (الذين اوتوه) وتكون في الآيـــة اشارة الى ما كان من اختلافهم في امر ما انزل الله اليهم من كتب اختلافاًدافعه قصد البغي والانحراف .

وقد حكت آيات كثيرة هذه الصورة عن اهل الكتاب الذين يدخل فيهم بنو اسرائيل . ومنها ما فيه صراحة انهم المقصودون مـــن ذلك كما ترى في الآيات التالية :

١ — تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ومنهم من كلمه الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ولو شاء الله مااقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر . . .

٢٥٣ البقرة

٢ — ان الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم .

١٩ آل عمران

٣ — ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات واولئك لهم عذاب عظيم .

١٠٥ آل عمران

٤ — ولقد بوأنا بني اسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم .

٩٣ يونس

٥ — ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم وانهم لفي شك منه مريب . ١١٠ هود

٦ – انما جعل السبت عـــلى الذين اختلفوا فيه وان ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون .

١٣٤ النحل

٧ – ان هذا القرآن يقص على بني اسرائيل اكثر الذي هم فيه يختلفون.

٧٦ النمل

٨ – وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك الى اجل مسمى لقضي بينهم وان الذين اورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب .

١٤ الشورى

٩ – فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم.

٦٥ الزخرف

١٠ – وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا الا من بعد ما جاءهم العـــلم بغياً بينهم .

١٧ الجاثية

(٦) وفي سورة البقرة هذه الآيات :

« ألم تر الى الملأ من بني اسرائيل من بعد موسى اذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم ان كتب عليكم القتال ألا تقـــاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل وقد اخرجنا من ديارنا وابنائنا . فلمـــا كتب عليهم القتال تولوا الا قليلا منهم والله عليم بالظالمين . وقال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن احق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال . قال ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم . وقال لهم نبيهم ان آية ملكه ان يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون تحمله الملائكة ان في ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين . فلما فصل طالوت بالجنود قال ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فانه مني الا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه الا قليلا منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنـــا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون انهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ... ٢٤٦–٢٤٩

وفي الآيات صورة لما كان من لجـــاج معظم بني إسرائيل وجبنهم وهلعهم وعصيانهم ومناقضتهم لأقوالهم بأفعالهم ومواقفهم .

(١٧) وفي سورة آل عمران الآيات التالية :

« ورسولا إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى باذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين . ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله واطيعون . ان الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم . فلما أحس منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون . ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين . ومكروا مكر الله والله خير الماكرين .

٤٩ — ٥٤

وفي الآيات صورة لموقف الكفر والمكر الذي وقفه معظم بني اسرائيل من عيسى عليه السلام ورسالته . وهناك آيات اخرى تكررت فيها حكاية هـــذه المواقف وفيها صور أخرى كما هو في الآيات التالية .

١ — وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيما . وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً . بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزاً حكيما . وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً . فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً . وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليما .

سورة النساء ١٥٦ — ١٦١

وفي الآيات تسجيل لما كان بنو إسرائيل يقذفون به مريم من بهتان ويدعونه متفاخرين بأنهم قتلوا المسيح عيسى رسول الله . بالإضافة إلى ما كان عقوبة الله لهم بما اقترفوه من ظلم وصد عن سبيل الله وتعاطيهم الربا الذي نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل . والآيات تلهم انـــه تسجل اخلاقاً وتصرفات متواترة

مشهورة عنهم في مختلف اجيالهم .

٢ – إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهيلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذني فتنفخ فيها فتكون طيراً باذني وتبرىء الأكمه والأبرص باذني واذ تخرج الموتى باذني واذ كففت بني اسرائيل عنـك اذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين.

المائدة ١١٠

وفي الآية صورة مشابهة للصورة التي تسجلها آيات آل عمران مع زيادة قول بني اسرائيل عن ما جاءهم به عيسى عليه السلام من البينات إن هو الا سحر مبين .

٣ – فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً . يا اخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت امك بغياً . فأشارت اليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً . قال اني عبـد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً . وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً . والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً . ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون . ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون . وأن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم . فاختلف الأحزاب مـن بينهم فويل للذين كفروا مـن مشهد يوم عظيم .

سورة مريم ٢٧–٣٧

وفي الآيات صورة لموقف بني إسرائيل من مريم وولادة عيسى الإعجازية عليهما السلام .

والآيات مسبوقة بفصل فيه حكاية لدعاء زكريا عليه السلام إلى الله بأن يهبه وارثاً وبشارة الله له باستجابة دعائه وهبته له يحيى واستغرابه وتنبيهه إلى قدرة الله على ذلك . ثم بشارة الله لمريم بواسطة الروح بهبته لها غلاماً واستغرابها ذلك وتنبيهها إلى قدرة الله عليه . وهذا يتطابق تماما مع ما جاء في الإصحاح الأول من انجيل لوقا واوردناه قبل في سياق سيرة المسيح عليه السلام .

٤ – ولما جـــاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون . ان الله ربي وربكم فاعبدوه هـــذا صراط مستقيم . فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا مـــن عذاب يوم اليم .

سورة الزخرف ٦٤ – ٦٥

٥ – وإذ قال عيسى بن مريم يا بني اسرائيل اني رسول الله اليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه احمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين .

سورة الصف ٦

(١٨) وفي سورة آل عمران هذه الآية :

« ومن اهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده اليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » [(١)] . ٧٥

واجمع المفسرون على ان الفريق الأول النصارى والثاني اليهود .

وفي الآية صورة لما درجوا عليه من استحلال كل شيء يأخذونه من الغـير أو يفعلونه معهم واعتقادهم بأن الله لا يؤاخذهم عليه لأنهم شعبه كذباً وافتراء عليه .

(١٩) وفي سورة آل عمران أيضاً هذه الآية :

« وإذ اخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونـــه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلا فبئس ما يشترون » ١٨٧

والآية من سلسلة في حق اليهود . وعلى كل حال فانهم داخلون في نطاق جملة (أوتوا الكتاب) . وفيها صورة لمخالفتهم ميثاق الله الذي اخذه عليهم ببيان ما في كتبه وعدم كتمانه . وإهمالهم هذا وإساءة استغلال كتاب الله في منافعهم الدنيوية .

(٢٠) وفي سورة المائدة الآيات التالية :

---

(١) كلمة الاميين في القرآن عنت العرب وعنت غير اهل الكتاب .

« وإذ قال موسى لقومه يا قومي اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم انبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت احداً من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . قالوا يا موسى ان فيها قوماً جبارين وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فانا داخلون . قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فانكم غالبون وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين . قالوا يا موسى انا لن ندخلها ابداً ما داموا فيها فاذهب انت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون . قال رب اني لا املك الا نفسي واخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال فانها محرمة عليهم اربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين » . ١٩ — ٢٦

وفي الآيات صورة لما كان من جبنهم وهلعهم وعدم اعتمادهم على الله وعدم قبولهم السير في تنفيذ وعده . وقد سجلت عليهم الفسق بلسان الله عز وجل وبلسان موسى عليه السلام .

(٢١) وفي السورة نفسها هذه الآيات التي جاءت بعد قصة ابني آدم وقتل احدهما للآخر بغياً :

« من اجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل انه من قتل نفساً بغير نفس او فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن احياها فكأنما احيا الناس جميعاً ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم ان كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون ».

٣٢

وفي الآية صورة لما كان انحراف كثير منهم عما كتبه الله عليهم وفسادهم واسرافهم في الأرض . وروح الآيات وفحواها يلهمان ان ذلك ديدنهم على مختلف اجيالهم .

(٢٢) وفي السورة نفسها هذه الآيات :

« لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » . ٧٧—٧٩

وفي الآيات صورة لما كان من استغراق كثير منهم في الآثام ومنكر الأفعال

وعدم مبالاتهم وتناهيهم عن ذلك وتسجيل لعنتهم على ذلك على لسان داود وعيسى عليهما السلام .

(٢٣) وفي سورة الأعراف هذه الآيات ·

« وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على اصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا الهاً كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون ».

١٣٨

وفي الآية صورة لما كان من رسوخ الوثنية فيهم ومسارعتهم الى الطلب من موسى ان يجعل لهم اصناماً يعبدونها حال ما رأوا أناساً يعبدون اصناماً . وهذه الصورة غير الصورة التي احتوتها آيات اخرى باتخاذهم العجل كما يبدو من مقارنة الظرفين وان كانت اثراً لنفس الحافز الراسخ . ولقد ظل ذلك الحافز راسخاً فيهم في مختلف أدوار تاريخهم في ارض كنعان على ما جاء شرحه في القسم الاول مما احتوته اسفارهم اخباره المتوالية .

(٢٤) في سورة الإسراء هذه الآيات :

« وقضينا الى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً . فاذا جاء وعد اولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا اولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا. ثم رددنا لكم الكرة عليهم فأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً . ان احسنتم احسنتم لأنفسكم وان أسأتم فلها فاذا جاء وعد الآخرة ليسؤوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيراً » .

٤-٧

وفي الآيات صورة من تاريخ بني اسرائيل بعد موسى عليه السلام . وما كان من تنكيل الله فيهم بسبب فسادهم واستعلائهم الباغي .

ولما كان تاريخ بني اسرائيل قد تقلب كثيراً وتعرضوا فيه لغزوات وضربات عديدة فالمتبادر ان القصد بالمرتين هو الإشارة الى اشد ما كان من ذلك . وقد تلهم روح الآيات انها بسبيل الاشارة الى الغزوة الاشورية التي هدمت احدى مملكتيهم اسرائيل في القرن الثامن ثم الغزوة الكلدانية البابلية التي هدمت مملكتهم الثانية يهوذا ودمرت معبدهم وعاصمتهم اورشليم .

(٢٥) في سورة الأحزاب هذه الآية :

« يا ايها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان

عند الله وجيهاً . ٦٩

وفي الآية إشارة إلى ما كان من أذية بني إسرائيل لموسى عليه السلام . وقد روى المفسرون أحاديث فيها توضيح لهذه الأذية . أوثقها ما رواه الشيخان والترمذي عن أبي هريرة وجاء فيه ان موسى عليه السلام كان يبالغ في ستر جسده حياء فقالوا إنه لا يفعل ذلك إلا لأن في جسده عيب أو آفة أو برص أو أدرة . وان الله أتاح لهم في فرصة أن يروا جسده فاذا هو سليم وبذلك برأه الله [1] .

(٢٦) في سورة الشورى هذه الآية :

« وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم وان الذين أوتوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب . ١٤

وبنو إسرائيل يدخلون في نطاق (الذين أوتوا الكتاب) وفي الآية والحالة هذه اشارة إلى تفرقهم أحزاباً بدون سند من حق وقصد إلى حق ولم يكن ذلك منهم إلا على سبيل البغي والانحراف عن الحق . وانهم والحالة هذه في شك مريب ازاء كتب الله .

ومن الجدير بالتنبيه أن جل بل كل هذه الصور المنطوية في الآيات القرآنية قد وردت في اسفار العهد القديم المتداولة على ما مر شرحه في سياق محتوى هذه الأسفار . وإن كان شيء من المباينة فالذي نعتقده أن في الأسفار المفقودة ما هو المتطابق مع محتوى الايات .

---

(١) التاج الجامع لأصول احاديث الرسول ج٤ص١٨٩ – ١٩٠ وقد فسر الشراح (الأدرة) بضخامة الخصيتين .

الفصل الأول

— ٣ —

وثانياً : أحوال وأخلاق اليهود في الحجاز ومواقفهم من الرسالة المحمدية والمصير الذي صاروا اليه في زمن النبي صلى الله عليه وسلم .

وسيكون الكلام على هذا في فصول كما يلي :

جنسية يهود الحجاز

إن الآيات القرآنية سواء أفي توجيه الخطاب إلى يهود الحجاز في معرض ذكرهم في المواقف المتنوعة أم في صدد بيان أحوالهم وأخلاقهم قد نسبتهم إلى إسرائيل دون استثناء . وربطت بينهم وبين بني إسرائيل الأولين من لدن موسى بل من لدن يعقوب الذي كان (إسرائيل) اسمه الثاني على ما ذكره سفر التكوين وأوردناه في القسم الأول . كما ترى من الأمثلة التالية :

١ — يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون .

سورة البقرة ٤٠

٢ — وإذا أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون .

البقرة ٨٣

٣ — سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فان الله شديد العقاب .

البقرة ٢١١

٤ — كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من

مقبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين .

آل عمران ٩٣

٥ – ولقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل . فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين .

المائدة ٢ – ١٣ (١)

٦ – لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكرفعلوه لبئس ما كانوا يفعلون . ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون .

المائدة ٧٨–٧٩

يضاف إلى هذا أولا : انهم كانوا يعيشون في احياء وقرى خاصة بهم في المدينة وما حولها كجاليات طارئة وكعادة بني إسرائيل منذ تشردهم في مختلف الأدوار والبلاد .

وثانياً : ان اللغة العبرانية كانت لغة كتبهم وطقوسهم ومدارسهم وتخاطبهم فيما بينهم . ويستلهم هذا من بعض الآيات القرآنية كما ترى في آيات سورة الأنعام هذه :

(وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون . أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين . أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا

---

(١) الايات تربط بين اليهود في زمن النبي واجدادهم بوصفهم من بني اسرائيل .

سوء العذاب بما كانوا يصدفون) .

١٥٥ — ١٥٧ [١]

وآية سورة فصلت هذه : (ولو جعلناه قرآنا أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد) .

٤٤ [٢]

وهناك بعض الآثار في ذلك أيضاً منها حديث رواه الترمذي عن زيد بن ثابت قال : (أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أتعلم له كتاب يهود قال اني والله إني ما آمن يهود على كتاب قال فما مر بي نصف شهر حتى تعلمته له . فلما تعلمته كان إذا كتب إلى يهود كتبت اليهم وإذا كتبوا اليه قرأت له كتابهم)[٣].

ومنها ما رواه ابن سعد في سياق وقائع التنكيل باليهود حيث روي ان النبي صلى الله عليه وسلم أرسل عبد الله بن عتيك مع ثلاثة آخرين من أصحابه إلى قتل أبي رافع سلام بن أبي الحقيق النضري زعيم اليهود في خيبر وأنهم قدموا عبد الله ابن عتيك لأنه كان يرطن باليهودية فكانت معرفته باليهودية سبباً لاطمئنان زوجة الزعيم اليهودي وفتحها الباب لأصحاب رسول الله حيث تمكنوا من إنجاز المهمة بسهولة [٤] . والخبر يفيد معرفة أمرين في صدد ما نحن فيه الأول أن اليهود في خيبر كانوا يتخاطبون باليهودية . والثاني أن لغة بني النضير الذين منهم الزعيم والذين كانوا يقطنون يثرب هي أيضاً يهودية أي عبرانية .

---

(١) المخاطب في الايات العرب بسبيل التنبيه الى ان الله قد انزل الكتاب على النبي لئلا يقولوا ان الكتب الإلهية السابقة انزلت بغير لغتهم وانه لو انزل عليهم كتاب بلغتهم لكانوا اهدى من الأمم التي جاءتهم تلك الكتب . وهي بهذا الشرح تنطوي على دلالة على ان الكتب التي كان يتداولها اليهود هي غير عربية اللغة .

(٢) هذه الاية بسبيل الرد على العرب الذين قالوا بسبيل التعجيز ان الكتب السماوية الاولى غير عربية اللغة فكيف يكون القرآن من عند الله وهو عربي اللغة .

(٣) التاج الجامع لأصول احاديث الرسول ج ٥ ص ٢٣٠ وكلمة (كتاب) في الحديث تعني كتابتهم ولغتهم على ما هو مستفاد من مجموع الحديث .

(٤) ج ٣ ص ١٣٤

وثالثاً : إن النبي صلى الله عليه وسلم أجلى معظم اليهود عن المدينة والقرى الأخرى إلى بلاد الشام فلم يكن لجلائهم أي أثر . حيث يدل كل هـــذا دلالة حاسمة على ان الكتلة اليهودية في الحجاز كانت من بني إسرائيل وكانت طارئة على الحجاز . وعلى ان ما ذكرته بعض الروايات من أن بني النضير وبني قريظة كانوا قبائل عربية متهودة لا تقوم على أساس صحيح [١] . وكل مــا يمكن أن يكون أن بعض العرب في يثرب وحولها قد تهودوا وتصاهروا مع بني إسرائيل بل ونحن نذهب إلى أبعد من هذا فنقول إنه لم يكن في سائر أنحاء جزيرة العرب وخاصة في اليمن كتل عربية متهودة في عصر النبي صلى الله عليه وسلم .

وإذا كانت الروايات والآثار تذكر ان بعض أحبار يهود يثرب استطاعوا حمل بعض ملوك حمير على التهود ونشر اليهودية بطريقهم بين العرب في اليمن في عهد الدولة الحميرية [٢] . فإن كتب السيرة القديمة لم تتضمن أية إشارة إلى وجود يهود في اليمن في زمن النبي صلعم كما أنها لم تذكر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أجلا يهوداً عن اليمن حينما أجلى النصارى عن نجران اليمن واليهود عـــن خيبر تنفيذاً لوصية النبي صلعم بأن لا يبقى في جزيرة العرب دينان [٣] . بل ان هناك حديثاً مروياً عن النبي ﷺ جاء فيه (أخرجوا يهود أهل الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب) [٤] . حيث يفيد هذا انه لم يكن في اليمن عند موته يهود . ولقد جر تهود بعض ملوك حمير إلى اضطهاد نصارى اليمن وحملهم عـلى التهود وأدى هذا إلى انتصار الحبشة النصرانية لهم وغزوها اليمن في أوائل القرن السادس الميلادي ونسفها الدولة الحميرية وبسط سيطرتها عليها [٥] فمن المحتمل جداً أن يكون المتهودون في اليمن قد رجعوا عن يهوديتهم طوعاً او كرهاً في ظلها حتى

---

(١) انظر تاريخ العرب قبل الاسلام جواد علي ج ٦ ص ١٥٢ .

(٢) انظر الجزء الخامس من كتابنا تاريخ الجنس العربي ص ٧٦ وبعدها و ٩٠ وبعدها ،

(٣) ابن هشام ج ٤ ص ٣٤٥ وفتوح البلدان للبلاذري ص ٧٣ وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٥٣٤ – ٥٣٥ .

(٤) مجمع الزوائد ج ٥ ص ٣٢٥ وكتاب الأموال للامام ابي عبيد ص ٩٩

(٥) انظر ايضاً الجزء الخامس من كتابنا تاريخ الجنس العربي ص ٧٦ ومابعدها .

لم يكد يبقى منهم احد قبيل البعثة النبوية حيث يفسر هـــذا عدم ورود امر نبوي باجلاء اليهود عن اليمن واقتصار الأمر عـلى إجلاء نصارى نجران ويهود الحجاز .

ومن المعلوم انه كان وما يزال في اليمن جماعات من اليهود . والذي نرجحه بل نعتقده بناء على ما تقدم انهم جالية اسرائيلية مستعربة وفدت على اليمن من الأندلس بعد سقوطها حيث كان فيها جماعات كثيرة من بني إسرائيل فخرج منها جماعات وتشتت في مختلف انحاء البلاد العربية والاسلامية في آسية وافريقية .

ولقد ذكرت روايات السيرة [1] انه كان في البحرين جماعة من اليهود إبان البعثة النبوية . والذي نعتقده انهم بدورهم جالية إسرائيلية من جملة الجوالي الإسرائيلية التي تشتتت في أنحاء الأرض نتيجة للضربات القاصمة التي كانت تنزل عليهم في مختلف الظروف على ما شرحناه في القسم الأول من هذا الكتاب .

---

(١) ابن سعد ج٢ ص ٢٧ – ٢٨ .

الفصل الثاني

احوال اليهود في الحجاز

— ٤ —

وفي القرآن آيات عديدة تساعد على رسم صورة كاملة لما كانت عليه احوال اليهود في الحجاز . ونقدم أولا الآيات ثم نعقب عليها ببيان المستفاد منها عن احوالهم . وقد يكون بعض الآيات قد أورد قبل . غير اننا سنورده مرةاخرى حتى لا نتعب القارىء بالبحث عنه :

١ — يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون . وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلا وإياي فاتقون . ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون . وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين . أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون .

البقرة ٤٠ — ٤٤

٢ — أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون . أو لا يعلمون ان الله يعلم ما يسرون وما يعلنون . ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون . فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون . وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة قل اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله مالاتعلمون.

البقرة ٧٥ — ٨٠

٣ ـ وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون . ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى اشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون .

البقرة ٨٤ ـ ٨٥

٤ ـ وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون . ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين . بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباؤوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين . واذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين . ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون .

البقرة ٨٨ ـ ٩٢

٥ ـ قل ان كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين .

البقرة ٩٤

٦ ـ واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما انزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من احد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من احد الا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون .

البقرة ١٠٣

٧ ـ وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل

هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين .

البقرة ١١١ [١]

٨ — وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين .

البقرة ١٣٥ [٢]

٩ — تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورافع بعضهم درجات وآتينا عيسى البينات وأيدناه بروح القدس ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد .

البقرة ٢٥٣

١٠ — وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون . ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون .

آل عمران ٧٨ — ٧٩

١١ — يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم . يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون. واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً وكنتم

---

(١) و (٢) سياق الايتين هو في اليهود فقط ونرجح أن تعبير النصارى جاء استطرادياً أو من قبيل لسان الحال . ولعل من القرائن الحاسمة على ذلك جملة (أم تقولون إن إبراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط كانوا هوداً أو نصارى) في آية البقرة (١٤٠) مع ان السلسلة في صدد موقف اليهود فقط ولا يحتمل أن يكون اليهود قالوا إن هؤلاء الانبياء نصارى او ان المدي في النصرانية واليهودية على السواء أو ان النصارى يدخلون الجنة أيضاً مع اليهود سواء بسواء .

على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون .

آل عمران ١٠٢–١٠٣ (١)

١٢ – لن يضروكم إلا أذى وإن قاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون . ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا . إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباؤوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون .

آل عمران ١١٢

١٣ – يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ماعنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون . ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور . إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم مصيبة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط .

آل عمران ١١٨ – ١٢٠ (٢)

١٤ – ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السموات والأرض والله بما يعملون خبير . لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء سنكتب

---

(١) في الايات اشارة الى ما كان بين الأوس والخزرج من عداء وحروب قبل الاسلام وإلى ما كان من دسائس اليهود بينهم ليعودوا إلى عدائهم وحروبهم التي وقفت منذأسلموا وصار بينهم اخاء ديني .

(٢) الروايات مجمعة على انها تعني اليهود ومضمونها يفيد ذلك .

ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق . ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد . الذين قالوا إن الله عهد الينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي فلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين . فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاؤوا بالبينات والزبر والكتاب المنير .

آل عمران ١٨٠ — ١٨٤

١٥ — ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل . والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً . من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا لياً بألسنتهم وطعناً في الدين ولو انهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا . يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما أنزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا . إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيما . ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلا . انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثماً مبيناً . ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا . اولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً .

النساء ٤٤ — ٥٢

١٦ — ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً .

النساء ٦٠

١٧ — الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم

العزة فإن العزة لله جميعاً .

النساء ١٣٩ [١]

١٨ — يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً .

النساء ١٤٤ [٢]

١٩ — إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقاً واعتدنا للكافرين عذاباً مهينا .

النساء ١٥٠ [٣]

٢٠ — فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ويصدهم عن سبيل الله كثيراً . وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين عذاباً أليما .

النساء ١٦٠ — ١٦١

٢١ — فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين .

المائدة ١٣

٢٢ — وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض وما بينهما واليه المصير .

المائدة ١٨

٢٣ — إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء .

المائدة ٤٤

(١ — ٢ — ٣) الروايات مجمعة على انها في صدد اليهود وتحالف المنافقين معهم امتداداً لمحالفتهم لهم في السابق .

٢٤ ــ فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين . ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم . انهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين .

المائدة ٥١ ــ ٥٢

٢٥ ــ وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت ليس ما كانوا يعملون . لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون . وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل اليك من ربك طغيانا وكفراً وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كل ما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين .

المائدة ٦٢ ــ ٦٤

٢٦ ــ وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ان ربك لسريع العقاب وانه لغفور رحيم . وقطعناهم في الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون . فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وان يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله الا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون .

الأعراف ١٦٧ ــ ١٦٩

٢٧ ــ ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون .

الأنفال ٥٥ ــ ٥٦ (١)

٢٨ ــ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم وما

---

(١) الجمهور على انها تعني اليهود ومضمونها قد يفيد ذلك .

أمروا الا ليعبدوا الهاً واحداً لا اله الا هو سبحانه عما يشركون . يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. يا أيها الذين آمنوا ان كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم .

التوبة ٣٢ — ٣٤

٢٩ — فإن كنت في شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك لقد جاء الحق من ربك فلا تكونن من الممترين .

يونس ٩٤

٣٠ — أولم تكن لهم آية أن يعلمه علماء بني اسرائيل .

الشعراء ١٩٧

٣١ — ان هذا القرآن يقص على بني اسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون . وانه لهدى ورحمة للمؤمنين . ان ربك يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العليم .

النمل ٧٦ — ٧٨

٣٢ — وأنزل الذين ظاهروهم من اهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها وكان الله على كل شيء قديراً .

الاحزاب ٢٦ — ٢٧

٣٣ — هو الذي اخرج الذين كفروا من اهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا انهم مانعتهم حصونهم من الله فآتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار .

الحشر ٢

٣٤ — ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل .

الحشر ٧

٣٥ – لأنتم أشد رهبة في قلوبهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون . لا يقاتلونكم جميعاً الا في قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون .

الحشر ١٤

٣٦ – قل يا أيها الذين هادوا ان زعمتم انكم اولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين .

الجمعة ٦

فهذه السلسلة من الآيات تلهم على ضوء روايات عديدة وردت في الكتب العربية القديمة [1] ان جماعات من بني اسرائيل قد جاؤوا الى الأنحاء الحجازية من امد بعيد واستقر اكثرهم في يثرب وقرى اخرى في ناحيتها على طريق الشام وكان بعض أفرادهم يترددون على مكة أو يقيمون فيها . وقد تعلموا اللغة العربية واشتركوا في حياة العرب وتقاليدهم وصار لهم فيهم انصار وحلفاء ومحبون ومركز قوي . وانهم نشروا عن انفسهم علماً واسعاً في الأديان والشرائع واخبار الأمم وسنن الكون والدين السماوي الذي يدينون به والكتاب المنسوب الى الله ورسله الذي يتداولونه .وكانوا يزهون بذلك على العرب ويفخرون ويستفتحون عليهم بل ويدلسون في كل ذلك عليهم . ويظهرون غروراً وخيلاء وتبجحاً بما عندهم من العلم وما يصدر عنهم من معارف ولو كان فيها زيف وتدليس . ويزعمون انهم اولياء الله وأحباؤه وأصحاب الحظوة لديه . وأن ذلك قد أثر على العرب تأثيراً غير يسير فكان لهم بسببه مكانة ممتازة صاروا بها مرجعاً لهم في كثير من مشاكلهم ومسائلهم ومعارفهم بل وصاروا لهم مرشدين وقضاة . وانه كان لهم كيان طائفي ديني ولهم معابدهم ومدارسهم وأحبارهم وربانيوهم وكان لهؤلاء تأثير كبير على أبناء الطائفة كما كانوا قضاتهم . وكان منهم من يتخذ منصبه ونفوذه وسيلة الى ابتزاز المال بالباطل . وكانوا يتعاطون السحر والشعوذة أيضاً . وكانوا جاليات كثيرة العدد منهم بل اكثرهم استقروا في احياء خاصة لهم في يثرب المدينة وحصنوها بالقلاع والحصون والأسوار. ومنهم

---

(١) لخصناها ورويناها مصادرها في الجزء الخامس من كتابنا تاريخ الجنس العربي ص ١٤٥ – ١٥٢

من سكن في مزارع وقرى خارج المدينة منها القريب ومنها البعيد . وحصنوها كتلك بالقلاع والحصون والأسوار . وكانوا يقتنون مختلف انواع السلاح وبكمية كبيرة من سيوف ورماح وقسى ونبال وحراب ودروع . ولم يكونوا متحدين في كيان سياسي وعسكري وديني . بل كانوا فرقاً واحزاباً وكانوا على خلاف ونزاع وعداء . وكان في المدينة قبيلتان عربيتان هما الأوس والخزرج وكان بينهما بدورهما نزاع وعداء وحروب . فكان فريق من اليهود متحالفاً مع احداهما وفريق آخر مع الأخرى وكان كل فريق يقاتل مع حليفه الفريق الآخر مع حليفه من اليهود . ولقد كان طابع الذلة والمسكنة والجبن والغربة والفزع يطبعهم جميعاً فكانت محالفاتهم مع العرب بالإضافة الى حصونهم وقلاعهم وسلاحهم وسيلتهم الى الاستمساك والبقاء . وكانوا لأجل ذلك يحرصون على أن يبقى النزاع والعداء قائماً بين القبيلتين العربيتين . وكانت لهم حقول ومزارع وبساتين واموال واملاك . وكانوا يشتغلون بالتجارة والصناعة والربا فكان كثير منهم نتيجة لذلك اغنياء واصحاب ثروات وكان ذلك يساعدهم على النفوذ والتأثير بالعرب أيضاً .

الفصل الثالث

اخلاق اليهود في الحجاز

— ٥ —

وفي القرآن آيات كثيرة تساعد على رسم صورة وافية لأخلاقهم أيضاً . ولقد ربطت هذه الآيات على الأكثر بين أخلاق اليهود المعاصرين للنبي ﷺ في الحجاز وبين اخلاق آبائهم الأولين بحيث يصح أن يقال إن هذه الأخلاق ليست خاصة بمن هم في الحجاز منهم حين نزول الآيات وإنما هي جبلة راسخة متوارثة من الآباء والأجداد . وبالتالي إنها صورة لأخلاق اليهود عامة في الحجاز وغير الحـــجاز غابرين ومعاصرين . وهذا مؤيد بما في الأسفار من لدن موسى من نعوت وحملات وتقريعات على ما كانوا يرتكسون فيه دائماً من انحرافات دينية واخلاقية واجتماعية على ما مر شرحه في القسم الأول .

ولقـد وصفتهم الآيات بالكفر والجحود واللجاج والأنانية والزهو والتبجح والترفع عن الغير واعتبارهم أنفسهم فوق الناس وعدم الإندماج الصادق مع أحد. وعدم الولاء الصادق لأحد . والتضليل والتدليس والدس والشره الشديد إلى ما في أيدي الغير والحسد الشديد لهم ولو تمتعوا أنفسهم بأوفر النعم . ومحاولة الاستيلاء على الكل والتأثير في الكل واللعب في وقت واحد على كل حبل وفوق كل مسرح واستحلالهم لما في أيدي الغير وعدم اعتبارهم أنفسهم مسئولين عن شيء أمامه . وضنهم بأي شيء للغير إذا ملكوا وقدروا . وعدم مبادلتهم الغير في ود وبر ومحبة . واندماجهم في موقف مهما دنؤ وفجر وكان فيه كفر وفسق وخيـــانة وغدر في سبيل النكاية بمن يناوئونه . ونقضهم لمبادىء دينهم في سبيل مكايدته .

وعدم تقيدهم بأي عهدووعد وميثاق وحق وعدل وواجب وأمانة . وتشجيعهم لكل حاقد وفاسد ومنافق ودساس ومتآمر في سبيل التهديم . وشفـــاء لداء الحسد والحقد والخداع المتأصل فيهم .

والآيات وإن كانت في صدد وصف أخلاقهم في الحجـــاز فإن روحها بل وفحواها يلهمان أنها أخلاق اليهود عامة .

وإنه لمن العجيب المثير ان المرء ليراهم في أخلاقهم اليوم على اختلاف منازلهم وبيئاتهم صورة طبق الأصل لما وصفهم به القرآن من صفات وأخلاق امتداداً لما حكته أسفارهم عنهم منذ القديم . لم تزدهم الأيام فيها إلا رسوخاً مما هو مصداق لما قرره القرآن من الجبلة الراسخة المتوارثة من الآباء للأبناء ومما لمسها فيهم البشر جميعاً في كل زمن ومكان حتى صاروا في ذلك كله العلم المفرد بين البشر أو القبيل البشري الشاذالمجمع على شذوذه في كل ذلك عن سائر البشر والذي غدا به حديث كل مجتمع في كل زمن ومكان فلا تراهم إلا والعيون مزورة منهم . والسخط فائر عليهم . والنفوس متبرمة بهم . والناس مستثقلون ظلهم . والحذر رائدهم منهم. وشرهم ومكرهم بالغـا الأثر فيهم والجميع راغب في التخلص منهم بأية وسيلة . وكفى باجماع البشر على اختلاف الزمان والمكان والجنس واللون والنحلة قوة ودليلا على تأصل تلك الجبلة التي يصدرون عنها في أعمالهم وتصرفاتهم وعلى أن البشر ليسوا هم المتحاملون عليهم نتيجة للعقد النفسية التي تعقدت بها نفوسهم ولازمتهم طيلة أدوار تاريخهم وما تزال . حيث يبدو من هذا هول البلاء الذي رمى به طواغيت الاستعمار العرب وبلادهم ليتخلصوا منه من جهة ويجعلوه للعرب هما دائماً مقيماً معقداً يقضون به مآربهم الخبيثة من جهة أخرى . وحيث يبدو كذلك شدة الحافز الذي يجب أن يحفز العرب على التضامن والمجاهدة في تطهير بلادهم من هذا البلاء العظيم .

واليك الآن نصوص الآيات التي تسجل عليهم تلك الأخلاق بأساليب متنوعة[1]

---

(١) في أجزاء سيرة ابن هشام وفي كتب التفسير في مناسبات نزول كثير من الايات التي ترد في هذا الفصل والفصول التالية وفيها ما تلهمه الايات من مواقف التآمر والانحراف وسوء الأدب والأخلاق والكفر والهزء والكيد والدس والتشكيك والفساد . ولم نر ضرورة لايراد الروايات لأن في الروايات صراحة بما كان يبدو من اليهود من مثل تلك المواقف .

وقد يكون بعض الآيات سابقة الإيراد . ومع ذلك فقد رأينا من المفيد إعادتها في هذا السياق :

١ — يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون . وآمنوا بما أنزلنا مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلا وإياي فاتقون . ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون. وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون .

البقرة ٤٠—٤٤

والآيات تسجل عليهم خلق كتمان الحق وإلباس الحق بالباطل والمكابرة بالحق وتفضيل منافع الدنيا عليه ووعظ الناس بالبر مع بعدهم عنه .

٢ — ومن هذا الباب آيات سورة آل عمران هذه :

يا اهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون . وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون . ولا تؤمنوا إلا لمن اتبع دينكم قل ان الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم به عند ربكم قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ..

٧٠ — ٧٣ [١]

وفي هذه الآيات زيادة عما احتوته آيات البقرة حيث تسجل عليهم خلق الخديعة والتضليل وتواصيهم بينهم بأن لا يتضامنوا ولا يتواثقوا ولا يتبادلوا المعرفة والمودة مع غيرهم ولا يطمئنوا اليه وأن يكونوا مع المسلمين في موقف النفاق والخداع لا غير . وأن لا يتساهلوا فيما يمكن أن يفيد المسلمين من هدى ومعرفة وحجة .

---

(١) ان الفقرتين (قل ان الهدى هدى الله) و (وقل إن الفضل بيد الله) هما بسبيل الرد الرباني على ما يقولونه ويتواصون به وقد حكى ابن هشام ان بعض أحبار اليهود وصوا بأن يظهر بعضهم الايمان بالنبي غدوة ونكفر به عشية حتى نلبس عليهم دينهم . (ج ٢ ص ١٨٠) .

٣ ـ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون . وإذا لقوا الذي آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون . أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون . ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون . فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون . وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة قل اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون .

البقرة ٧٥ــ٨٠

والآيات تسجل عليهم ما سجلته آيات آل عمران السابقة من خلق النفاق والخديعة وعدم التساهل فيما يفيد المسلمين من معارف وأفكار وحجة دينية . وتسجل عليهم بالإضافة إلى ذلك خلق الكذب على الله في مسائل الدين بسبيل التدليس على الناس وتضليلهم وابتزازهم والنصب عليهم والزهو بأن لهم الحظوة عند الله لذات المقصد أيضاً .

٤ ــ وهذه التسجيلات تكررت في آيات اخرى في سورة آل عمران منها هذه الآيات :

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون . ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون .

٢٣ــ٢٤

وفيها زيادة هي رفضهم التحاكم إلى كتاب الله حينما يدعون إلى ذلك ومنها هذه الآيات :

«وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون .

آل عمران ٧٧

وفيها زيادة هي أنهم يكذبون على الله وكتابه عن علم وتعمد .

٥ — وإذا أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم الا قليلا منكم وأنتم معرضون.

البقرة ٨٣

— والآية تسجل عليهم خلق نقض مواثيق الله وعهوده التي فيها وصاياه وتعاليمه التعبدية والاجتماعية وإعراضهم عنها دون مبالاة . وتربط في ذلك بين الآباء والأبناء .

٦ — ومن هذا الباب هذه الآية في السورة نفسها :

وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين .

البقرة ٩٣

وفيها زيادة هي إعلانهم التصميم على عصيان الله ونقض ميثاقه وانحرافهم إلى عبادة العجل وكان النهي عن عبادة غير الله من أمهات تلك المواثيق والعهود .

٧ — ومن هذا الباب كذلك آية سورة النساء هذه :

« فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا .

النساء ٥٥

٨ — ومن هذا الباب أيضاً آيات سورة المائدة هذه :

« ولقد أخذ الله ميثاق بني اسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً . وقال الله اني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم واقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك فقد ضل سواء السبيل . فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم الا قليلا منهم .. المائدة ١٣

وفيها زيادة وهي خلق تحريف الكلم أو الحقائق والحق بما تمليه أهواؤهم ومنافعهم وتناسيهم كثيراً من أوامر الله وتعليماته دون خوف منه وتبييت أكثرهم في كل زمن مكان الخيانة والغدر بالحقوق والعهود دون مبالاة بالناس .

وهذا غير خلق نقض العهود والمواثيق مع الناس على ما يأتي بيانه بعد هذا. ومن الجدير بالذكر ان هذا الخلق قد حكته عنهم الأسفار من لدن موسى ومابعده على ما مر شرحه حيث يبدو انه استمر في الأبناء جيلا بعد جيل وكان قائماً في الجيل المعاصر للنبي ﷺ .

٩ ــ واذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وانتم تنظرون .

البقرة ٥٥

والآية تربط بين المعاصرين المخاطبين وبين آبائهم الأولين وتسجل عليهم خلق المماراة واللجاج. والمتبادر ان هذا الربط كان بسبب ظهور هذا الخلق في المعاصرين المخاطبين .

١٠ ــ ومن هذا الباب هذه الآية من نفس السورة :

واذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصراً فان لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون .

٦٣

وفيها زيادة هي التذكير بما كان قتلهم الأنبياء بغير حق وبما كان يتكرر منهم من عصيان وعدوان .

١١ ــ ومن هذا الباب كذلك هذه الآيات في سورة البقرة :

« واذ قال موسى لقومه ان الله يأمركم ان تذبحوا بقرة قالوا اتتخذنا هزواً قال اعوذ بالله ان اكون من الجاهلين . قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي قال انه يقول انها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون . قالوا ادع

لنا ربك يبين لنا ما لونها قال انه يقول انها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين. قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ان البقر تشابه علينا وانا ان شاء الله لمهتدون. قال انه يقول انها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لا شية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون . واذ قتلتم نفساً فادرأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون . فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون . ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة او أشد قسوة وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون .أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون .

٦٧ — ٧٤

وفيها زيادة هي كتمانهم واخفاؤهم ما يقع منهم من جرائم وقسوة قلوبهم نتيجة لذلك . وتحريفهم كلام الله عن عمد وتصميم برغم انهم فهموه على حقيقته. والآية الأخيرة هي التي ربطت بصراحة بين المخاطبين وآبائهم في هذه الأخلاق كما هو المتبادر .

١٢ — ومن هذا الباب كذلك هذه الآيات في نفس السورة :

قل اتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا اعمالنا ولكم اعمالكم ونحن له مخلصون . أم تقولون إن ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً او نصارى قل أأنتم اعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون .

١٣٩—١٤٠

وفيها زيادة هي كتمانهم العلم الذي يعلمونه عن الله بقصد التدليس والتضليل .

١٣ — ومن هذا الباب آيات سورة آل عمران هذه :

يا أهل الكتاب لم تحاجون في ابراهيم وما انزلت التوراة والإنجيل الا من بعده افلا تعقلون . ها انتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وانتم لا تعلمون . آل عمران ٦٥ — ٦٦

١٤ ــ ومن هذا الباب كذلك آيات سورة آل عمران هذه ايضاً :

« كل الطعام كان حلا لبني اسرائيل الا ما حرم اسرائيل على نفسه من قبل ان تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين . فمن افترى على الله الكذب بعد ذلك فأولئك هم الظالمون .

٩٣ ــ ٩٤

وفيها زيادة هي الإشارة الى مكابرتهم فيما احتوته كتبهم وافتراؤهم على الله الكذب في ذلك .

١٥ ــ ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس افكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون . وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون . ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين بئسما اشتروا به أنفسهم ان يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباؤوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين . واذا قيل لهم آمنوا بما انزل الله قالوا نؤمن بما انزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم قل فلم تقتلون انبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين .

البقرة ٨٧ــ٩٢ [(١)]

والآيات تسجل عليهم خلق النقمة على الله لأنه أنعم على غيرهم وهو النبي صلى الله عليه وسلم بفضله ونبوته وساقهم ذلك الى انكار ما كانوا يعترفون به ويبشرون به ويعرفون انه الحق ويستفتحون به على الكفار قبل البعثة لشدة الغيظ الذي انتابهم من ذلك . وقد اظهروا الترفع عن الإيمان بما أنزل الله وهو حق مصدق لما معهم .

---

(١) حكى ابن هشام قول بعض اهل يثرب لما اجتمعوا مع النبي صلعم ان اليهود كانوا يقولون لهم ان نبياً منكم سوف يبعث ونكون معه فنقتلكم قتل عاد وإرم والايات تشير الى ذلك (ج ٢ ص ١٦٦) .

١٦ — أوكلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون .

البقرة ١٠٠

وتسجل الآية عليهم خلق نقض العهود جماعة تلو جماعة دون مبالاة .

١٧ — ومن هذا الباب آيات سورة الأنفال هذه :

ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون . وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين .

٥٥ — ٥٨ [(١)]

وتسجل عليهم الآية تكرر نقض العهد منهم مع خلق الغدر والخيانة .

١٨ — ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

البقرة ١٠٥ [(٢)]

والآية تسجل عليهم سوء النوايا نحو المسلمين وتمنى عدم نيلهم بأي نعمة وفضل . واشتراكهم في هذا مع المشركين رغم ما بينهم وبين المشركين من تباعد وتناقض في عقيدة التوحيد وما بينهم وبين المسلمين من توافق فيها !

١٩ — ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير .

البقرة ١٠٩

والآية تسجل عليهم مع الخلق المذكور في الآية السابقة خلقاً في غاية البشاعة وهو الرغبة في ارتداد المسلمين عن الإيمان بالله إلى الشرك الذي كانوا عليه من شدة حسدهم وغيظهم من بعثة النبي والتفافهم عليه برغم ما ظهر لهم أنه نبي حقاً وصدقاً .

(١و٢) الروايات مجمعة على انها في حق اليهود وهي من سلسلة طويلة في مواقف اليهود من الدعوة الاسلامية والايات ٥٥ و ٥٨ بخاصة في حق بني قينقاع منهم .

٢٠ – ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون . ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون .

آل عمران ٢٣–٢٤

والآيتان تسجلان عليهم رفضهم تحكيم كتاب الله في المسائل التي يكابرون ويمارون فيها بقصد التشويش والتضليل وعدم مبالاتهم من عذاب الله على ذلك حيث يقولون إن هذا العذاب بالنسبة اليهم هو برهة قصيرة . والمتبادر ان الكتاب الذي كانوا يدعون إلى تحكيمه هو كتاب الله الذي كان في أيديهم لأنه هو الذي يمكن أن يعترفوا به وينصاعوا اليه . وهذا مما يزيد ذلك الخلق بشاعة وسوءاً .

٢١ – ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده اليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون .

آل عمران ٧٥ [١]

والآية تسجل عليهم خلق استحلال ما يدخل في عهدتهم من ذمم وأمانات من الأمم الأخرى وعدم اعتبار أنفسهم مسئولين عن ذلك وانها حق لهم !

٢٢ – قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون .

آل عمران ٩٩

والآية تسجل عليهم صورة اخرى لما احتوته الآية (١٠٩) من سورة البقرة السابق إيرادها . مع زيادة وهي تسجيل سعيهم في تنفيذ تحقيق تلك الصورة وعدم البقاء في نطاق التمني برغم ما فيها من بشاعة لأن فيها صداً عن توحيد الله وسبيله عن علم وبنية وعمد .

---

(١) ان تعبير الاميين عند اليهود ينصرف إلى غيرهم من الامم مطلقاً . والمفسرون يرون ان الفريق الأول في الاية هم النصارى والفريق الثاني هم اليهود ، وهذا متسق مع عقدة الاستعلاء والاختصاص المستقرة في نفوسهم .

٢٣ — يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من أهل الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم . يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون . واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون .

آل عمران ٩٩ — ١٠٣

في هذه الآيات صورة من صور التنفيذ اليهودي في سبيل رد المسلمين كفاراً. وقد نزلت بمناسبة فتنة أراد بعض اليهود إثارتها بين الأوس والخزرج كادت تعصف بإسلامهم وباخوتهم الإسلامية وتعيد بينهم الحرب والعداء الذي زال بالإسلام . وقد سجلت على اليهود [illegible]س بين المسلمين حين رأوهم متفقين منسجمين في إخوة دينية وقومية ملتفين حول هاديهم النبي العظيم بقصد تفريق شملهم وإثارة الدماء والعداء بينهم[1] .

٢٤ — يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون . ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور . إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضيركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط .

آل عمران ١١٨—١٢٠

والآيات تسجل عليهم عدم مبادلتهم المسلمين أي حب ومودة مهما أظهروا لهم من ذلك وإضمارهم لهم شديد البغض والغيظ والنقمة من كل نعمة تنالهم وفرحهم لكل مصيبة تحل بهم . والمتبادر أن هذا الخلق عام فيهم إزاء كل أمة

---

(١) ذكر ذلك في كتب التفسير والسيرة . انظر تفسير الطبري وانظر سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٨٣ — ١٨٦

ونحلة . وكل ما في الأمر ان الآيات تسجله عليهم في مناسبة ظهوره ازاء المسلمين.

٢٥ – لا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السماوات والأرض والله بما تعملون خبير . لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن اغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق وتقول ذوقوا عذاب الحريق . ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد. الذين قالوا إن الله عهد الينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم ان كنتم صادقين . فان كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاؤوا بالبينات والزبر والكتاب المنير.

آل عمران ١٨٠–١٨٤

والآيات تسجل عليهم شدة الشح مع سوء الأدب مع خالقهم ورازقهم حينما يطلب اليهم مساعدة محتاج من عباده أو التبرع للمشاريع الخيرية . كما تسجل عليهم المكابرة والتعجيز أمام دعوة الحق وكلمة الحق [١] .

٢٦ – ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون ان تضلوا السبيل والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً . من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا لياً بألسنتهم وطعناً في الدين ولو انهم قالوا سمعنا واطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا .

النساء ٤٤–٤٦

والآيات تسجل عليهم خلق الارتكاس في الضلال والانحراف عن جادة الحق عن عمد وتصميم ليضلوا بذلك المسلمين ويشككوهم في دينهم ونبيهم . وخلق السخرية بالنبي وسوء الأدب في خطابه .

٢٧ – ألم تر الى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولايظلمون فتيلا. انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثماً مبيناً .

النساء ٤٩–٥٠

---

(١) روى ابن هشام ان اليهود قالوا هذا لأبي بكر ج ٢ ص ١٨٧

والآيات تسجل عليهم خلق التبجح وتزكية النفس واعتبارهم انفسهم فوق مستوى غيرهم ارومة وهدى وينسبون ذلك إلى الله كذباً وافتراء .

٢٨ – ألم تر الى الذين اوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا . اولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً .

النساء ٥١ – ٥٢

هذه الآيات نزلت بمناسبة ذهاب وفد يهودي الى مكة لتحريض قريش على النبي والمسلمين والتحالف معهم على استئصال شأفتهم . وقد ذهبوا مع زعماء قريش الى الأصنام فتبركوا بها وحلفوا لهم عندها على صدقهم في محالفتهم . وسألهم الزعماء بالله ما اذا كانوا هم اهدى في دينهم وعقائدهم من محمد واصحابه ام ان محمداً واصحابه اهدى فقالوا لهم انهم هم الأهدى .

والآيات تسجل عليهم خلقاً في غاية البشاعة وهو ايمانهم بأصنام المشركين وشهادتهم لهم بأنه اهدى من النبي واصحابه المؤمنين بالله وحده والداعين الى مكارم الأخلاق وسبيل الله. وكل ذلك بقصد اغراء المشركين وتأليبهم على النبي والمسلمين برغم اتحادهم معهم في التوحيد واسس الدين . وبعبارة اخرى خلق الارتكاس في اشد دركات الانحراف الديني والوقوف في أي موقف مهما دنؤ وفجر وتبريرهم كل وسيلة مهما كان فيها وصمة وفسق وعار بسبيل النكاية بمن يناصبونهم العداء [1] .

٢٩ – أم لهم نصيب من الملك فاذن لا يؤتون الناس نقيراً . أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيما .

والآيات تسجل عليهم خلق الضن بأي خير مهما تفه عن غيرهم اذا ماملكوا واصبح في مقدورهم ان يمنعوا ويمنحوا . وخلق الحسد للغير على كل نعمة ينالها وكل فضل يصيبه من الله ولو كانوا هم يتمتعون بوافر نعم الله وفضله وخيراته .

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٩٠

٣٠ – فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات احلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً . وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليما . النساء١٦٠–١٦١

والآيات تسجل عليهم خلق الظلم ومخالفة أوامر ربهم واخذ الربا الذي نهاهم عنه واستحلالهم أموال الناس وأكلها بغياً وخيانة وباطلا .

٣١ – وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون . لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون .

المائدة ٦٢–٦٣

والآيات تسجل عليهم صورة اخرى من ما احتوته الآية السابقة . مع زيادة وهي تخلقهم بخلق الإثم والعدوان . وتسجل على احبارهم وربانييهم عدم المبالاة بهذه الأخلاق وسكوتهم عنها حيث كان ذلك مؤدياً الى استشرائها فيهم .

٣٢ – وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل اليك من ربك طغياناً وكفراً وألقينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة كلما اوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين (١)

المائدة ٦٤

والآية تسجل عليهم خلق سوء الأدب نحو الله إذا ما ابتلاهم بمحنة وتناسيهم نعمه المتوالية عليهم وارتكاسهم في الكفر والبغي والطغيان عناداً وغيظاً من بعثة النبي ووحي القرآن اليه ونجاحه في مهمته وازديادهم في ذلك كلما ازداد نجاحاً ونزل عليه القرآن . وسعيهم المتواصل في الفساد في الأرض واثارة الفتن والحروب بسبيل النكاية بمن يناصبونه العداء وشفاء غلهم منهم .

٣٤ – لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون . ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن

(١) في الروايات انهم صاروا في ضيق اقتصادي بسبب انصراف العرب عنهم فقالوا ماذكرته الايات .

سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون .

المائدة ٧٨-٨٠

وتربط الآيات بين السابقين والمعاصرين من بني إسرائيل وتسجل عليهم خلق التمرد والعصيان والبغي وعدم نهي بعضهم بعضاً عن المنكرات وعدم مبالاتهم باستشرائها فيهم . وتسجل عليهم كذلك خلق التآمر مع مخالفيهم في جوهر الدين والتوحيد ضد المسلمين الذين هم متحدون معهم في ذلك وموالاتهم ايغالاً في العداء والنكاية .

٣٥ - لتجدن اشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهودوالذين أشركوا ولتجدن اقربهم للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ..

المائدة ٨٧

وتقر الآية بناء على ما كان منهم تجاه المسلمين مواقف وتصرفات ونقض وتآمر انهم اشد الناس عداوة لهم متحدين في ذلك مع المشركين الذين هم اعداء اصليون وغير موحدين . بحيث يجعلهم عداؤهم لهم يبررون كل موقف وعدوان ضدهم مهما كانت الوسيلة مع انهم متحدون معهم في أسس الدين ومصدره .

٣٦ - فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وان يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون .

الأعراف ١٦٩ [١]

والآية تسجل عليهم انهماكهم في اعراض الدنيا وضربهم بأوامر الله ونواهيه وكتبه عرض الحائط وتدليسهم في الحق وكذبهم فيه بسبيل تأمين تلك الأعراض وتربط المعاصرين بالسابقين في هذا الخلق . وهذه الجبلة الخلقية الفاسدة المتأصلة فيهم والمتوارثة عن الآباء إلى الأبناء والمتنوعة في مظاهرها والبالغة حداً بعيداً في السوء والبشاعة والانحراف جعلت اليهود مظهر غضب الله ولعنته وعهده بأن يكونوا متسربلين بالذلة والمسكنة على ما جاء في بعض الآيات التي فيها تسجيل

---

(١) الآية مدنية على ما ذكرته الروايات .

واقع الحال من امرهم بين البشر في مختلف الأدوار والأمكنة في الوقت نفسه كما ترى فيما يلي :

١ – ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباؤوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون .

آل عمران ١١٢

٢ – قل يا اهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله بما انزل الينا وما انزل من قبل وان اكثركم فاسقون . قل هل انبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منه القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً واضل عن سواء السبيل .

المائدة ٦٠– ٦١

٣ – وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ان ربك لسريع العقاب وانه لغفور رحيم . الأعراف ١٦٧

الفصل الرابع

مواقف اليهود من الدعوة
الاسلامية في العهد المدني

— ٦ —

تمهيد

قلنا في التمهيد الأول استدلالا من الأسلوب القرآني المكي والمدني أن اليهود لم يصطدموا مع النبي (ﷺ) في مكة وكان موقفهم من دعوته موقف تأييد وتصديق. لأنهم لم يكونوا في مكة كتلة كبيرة لها مركز يخشون عليه بينما كان حالهم في المدينة مختلفاً من حيث أنهم كانوا كتلة كبيرة لها مصالح متنوعة ومركز ممتاز. ولم يكونوا على ما يبدو يحسبون أنه سيصمد في مكة طويلا ثم يهاجر إلى المدينة ويلتف حوله العرب ويقوى.

ومع انهم كانوا يعرفون ان رسالة النبي حق وصدق ويبشرون به ويستفتحون على العرب ويقولون لهم انهم سيكونون واياه حزباً عليهم على ما تلهمه آية سورة البقرة هذه:

(ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين).

٨٩

وآية سورة آل عمران هذه:

(كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين). ٨٦

وآية سورة الأعراف هذه :

(الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ...) ١٥٧

ومع أن النبي (ﷺ) حين حل في المدينة كتب بينه وبينهم عهداً أمنهم فيه على حريتهم الدينية وطقوسهم ومعابدهم وأموالهم وأبقاهم على محالفاتهم مع بطون الخزرج والأوس وأوجب لهم النصر والحماية مشترطاً عليهم ألايغدروا ولا يفجروا ولا يتجسسوا ولا يعينوا عدواً ولا يمدوا يداً بأذى وأوجب عليهم نصر المؤمنين والإتفاق معهم كحلفاء على ما ذكرته روايات السيرة [١] وتلهمه آية سورة البقرة هذه :

(أوكلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون)

١٠٠

وآية سورة الأنفال هذه :

(الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون) .

٥٦

فإنهم لم يلبثوا أن تطيروا من هجرته إلى المدينة واستقراره فيها وأخذوا ينظرون بعين التوجس إلى احتمال رسوخ قدمه وانتشار دعوته واجتماع شمل الأوس والخزرج تحت لوائه بعد ذلك العداء الدموي الذي كانوا من دون ريب يستغلونه في تقوية مركزهم وخشوا على هذا المركز والامتيازات الكبيرة التي كانوا يتمتعون بها ويجنون منها أعظم الثمرات .

ولقد كان ظنهم على ما يبدو أن يجعلهم النبي (ﷺ) خارج نطاق دعوته معتبرين أنفسهم أهدى من أن تشملهم وأمنع من أن يأمل في دخولهم في دينه وانضوائهم إلى رايته . بل لقد كانوا يرون ان من حقهم أن ينتظروا انضمامه اليهم ويتبجحون انهم الأهدى اصحاب الحظوة عند الله على ما حكته عنهم بعض الآيات مثل آية سورة البقرة هذه :

---

(١) انظر ابن هشام ج ٢ ص ١١٩-١٢٣

(وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) ١١١ [١]

وهذه (لن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل ان هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير) ١٢٠

وهذه (وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) ١٣٥ [٢]

وآية سورة المائدة هذه :

(وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ...) ١٨ [٣]

ولا سيما حينما رأوه يصلي إلى قبلتهم ويعلن إيمانه بأنبيائهم وكتبهم بلسان القرآن ويجعل ذلك جزءاً لا يتجزأ من دعوته ويتلو فيما يتلوه :

١ – قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل إلى إبراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون.

البقرة ١٣٦

٢ – آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير ..

البقرة ٢٨٥

٣ – اولئك الذين هدا الله فبهداهم اقتده ..

الأنعام ٩٠ [٤]

٤ – وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون .

السجدة ٢٤ [٥]

---

(١) سياق الايات في صدد اليهود وذكر النصارى جاء استطراداً ومن قبيل لسان الحال . وعلى كل حال فالايات تحكي فيما تحكيه اقوال اليهود .

(٢و٥) الايات من سياق في صدد بني إسرائيل وانبيائهم .

٥ – ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكمة والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين.

الجاثية ١٦

فخاب ظنهم ورأوه يدعوهم في جملة الناس بل يخصهم بلسان القرآن أحياناً بالدعوة ويندد بهم لعدم مسارعتهم إلى استجابتها ولموقفهم منها موقف الانقباض ثم موقف الكفر والتعطيل على ما تلهمه هذه الآيات :

١ – يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون . وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلا وإياي فاتقون . ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون. وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين. أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون .

٤٠ – ٤٤

٢ – ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون . وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزّل الله من فضله على من يشاء من عباده فباؤوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين . واذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين .

البقرة ٨٧ – ٩١

٣ – يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا اصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا .

النساء ٤٧

٤ – يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن

تقولوا ما جاءنا من بشير ولانذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير .
المائدة ١٩

فكان هذا على ماهو المتبادر باعثاً على تنكرهم للدعوة وحقدهم على صاحبها منذ الخطوات الأولى من العهد المدني . ثم رأوا الناس قد أخذوا ينصرفون عنهم ويتخذون النبي (ﷺ) مرجعهم الأعلى ومرشدهم الأعظم وقائدهم المطاع فاستشعروا بالخطر المظيم يحدق بمركزهم الذي يتمتعون به بين العرب وامتيازاتهم التي كانوا يستغلون العرب فيها إذا تم النجاح والاسقرار للنبي ودعوته . وأرادوا ان يتمسكوا بكيانهم الخاص فكان هذا عاملا على اندفاعهم في خطة التنكر والحقد والصد والتعطيل والتآمر إلى النهاية .

ولقد كان من المتوقع على ما تلهمه آيات القرآن ان يجد النبي (ﷺ) في يهود المدينة سنداً وعضداً . وان يكونوا أول من يؤمن بـه ويصدقه ويلتف حوله لما كان بين دعوته واسس دينهم من وحدة ولما احتواه القرآن من تقريرات متنوعة وكثيرة بأنه مصدق لما بين يديه ومحتو على حل المشاكل والخلافات التي يتعثر بها الكتابيون وباستشهادهم خاصة واستشهاد الكتابيين عامة على صحة رسالته استشهاداً ينطوي على الثقة فيهم والتنويه بهم ولما كان من حسن استجابة الكتابيين وفيهم اسرائيليون الى دعوته وايمانهم برسالته في مكة فيكون في تحقيق هذا المتوقع تيسير لانتشار الدعوة وحسن استقبالها من سائر العرب الذين كانوا ينظرون إلى اليهود نظرة الواثق بعقلهم وبصيرتهم الدينية . فلما رأى النبي (ﷺ) منهم ما رأى من الانقباض اولا والتنكر والصد والتعطيل والباس الحق بالباطل عن عمد وعناد ثانياً تأثر تأثراً عميقاً من خيبة امله فيهم رددته آيات القرآن الكثيرة مما أوردناه قبل ونورده بعد منكرة منددة مقرعة وكان من اسباب تفاقم الخلاف بينهم وبينه الى النهاية كذلك .

ولقد احتوى القرآن فصولا عديدة انطوى فيها صور متنوعة لمواقف اليهود من الدعوة في العهد المدني وتعبر اقوى تعبير عن قوة الدور الذي قاموا به وشدة نكايته وبعد مداه واثره . سواء أكان ذلك بما كان منهم مـن جحود وحجاج ومكابرة وعناد ازاء الدعوة . ام كيد ومكر ودس وسخرية وتشكيك واذى بين المسلمين . ام تآمر مع المنافقين وتشجيعهم لهم حتى يمكن ان يقال انهم هم

الذين اججوا نارهم بما بثوا ونموا فيهم من الريب والشكوك وروح التمرد والكيد وان المنافقين لولاهم لما نموا وقووا وثبتوا وكان منهم ذلك الأذي البالغ والكيد الشديد . ام مواقف عدالية سافرة وتآمر حربي مع المشركين اعداء النبي والمسلمين الأشداء الأصليين حتى كاد هذا التآمر يوقع اعظم كارثة في الإسلام ويقضي عليه قضاء مبرماً في غزوة الأحزاب .

ومما يجدر بالتنويه للدلالة على ما كان لموقف اليهود وعدائهم من تأثير سلبي في سير الدعوة وانتشارها وفي مركز النبي والمسلمين ومن تأثير ايجابي في قوة اعدائهم انهم لم يكادوا يتوارون عن مسرح المدينة نتيجة لما كان بينهم وبين النبي من صدام ادى الى التنكيل بهم باجلاء فريق منهم وابادة فريق منهم حتى ضعف اولا امر المنافقين وصار الى ما وصفتهم به آيات سورة التوبة هذه :

(ويحلفون بالله انهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون . لو يجدون ملجأ او مغارات او مدخلا لولوا اليه وهم يجمحون .

٥٦ — ٥٧

بعد ان بلغ من شعورهم بعزتهم وقوتهم وكثرتهم ان حرضوا الناس على النبي واصحابه المهاجرين واقسموا ليخرجن الأعز الأذل من المدينة مستشعرين انهم الأعز كما حكته آيات سورة المنافقين هذه :

(وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون . سواء عليهم أستغفرت لهم ام لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم ان الله لا يهدي القوم الفاسقين . هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون . يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون) . ٥ — ٨

وحتى خفت ثانياً غلواء زعماء قريش ولم يعودوا يفكرون في غزو المدينة وقتال المسلمين . وحتى تزايد ثالثاً عدد المستجيبين الى الدعوة والمنضوين الى راية النبي (ﷺ) تزايداً عظيما . وحتى بلغ الأمر رابعاً إلى ان يعتزم النبي (ﷺ) الرحلة إلى مكة لزيارة مع جمهور المسلمين وأن يجنح زعماء قريش الى مهادنته والاعتراف به نداً . وحتى يفرغ بالهخامساً فيرسل رسله وكتبه الى ملوك الأرض

في اطراف الجزيرة وخارجها يدعوهم الى الاسلام ويسمع الآفاق صوت الدعوة قويا رنانا وتتجاوب له هذه الآفاق . وحتى يصبح سادساً من القوة بحيث يعزو مكة بعشرة آلاف مقاتل ويفتحها فينهدم السور الذي كان يقوم بها بين الدعوة وسائر العرب في مختلف انحاء الجزيرة ويقبل الناس من كل صوب علـى النبي ويدخلون في دين الله افواجاً فيتم بذلك توطد الوحدة العربية الأولى تحت راية الإسلام . كل هذا لأن العدو الذي كان بين ظهراني المسلمين والذي كان شديد الكيد والنشاط والمكر والأذى قد زال من الطريق . ولم يعد المنافقون يجدون من يشجعهم وينفخ في نارهم كما لم يعد هناك من يشكك العرب والمسلمين في الحق ويصدهم عن الهدى . ولم يعد اهـل مكة يجدون في المدينة الاعوان والعيون والطاعنين من الخلف طعن الغدر والخيانة

وسيكون الكلام في هذا الفصل على خمسة مواضيع وهي :

١ ــ مواقف اليهود ازاء الدعوة بالذات .

٢ ــ مواقف اليهود الحجاجية .

٣ ــ دسائس اليهود بين المسلمين .

٤ ــ تآمر اليهود مع المنافقين .

٥ ــ تآمر اليهود مع المشركين .

أولا : موقف اليهود ازاء الدعوة

إن آيات سورة البقرة هذه:

يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون . وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلا وإياي فاتقون . ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون . وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين . أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون .

البقرة ٤٠ — ٤٤

التي هي من اول ما خوطب به يهود المدينة من القرآن المدني صريحة الدلالة على انهم لم يقابلوا الدعوة الاسلامية التي وجهت اليهم مقابلة حسنة . ويلفت النظر خاصة الى ما فيها من نهي لهم عن ان يكونوا اول كافر بالقرآن . وعن الباس الحق بالباطل وكتم الحق الذين يعرفونه وهو كون رسالة النبي ووحي الله اليه بالقرآن حقاً وصدقا ثم الى السؤال الاستنكاري عن امرهم الناس بالبر وعدم سيرهم في طريقه . ففي كل ذلك دلالات على المقابلة غير الحسنة للدعوة التي وجهت اليهم اولا ثم على ظهور امارات وقوفهم منها موقف الجحود والتعطيل ثانياً .

ولقد تبع هذه الآيات سلسلة طويلة استغرقت ثلث حيز السورة تضمنت تذكيرهم بما كان من نعمة الله السابقة على آبائهم ثم بما كان من عناد هؤلاء الآباء ومواقفهم التمردية والتعجيزية من انبياء الله واوامره ووصاياه وانحرافهم عنها وما كان من نكال الله بهم ثم تضمنت تسلية للنبي (ﷺ) في تقرير كون الأبناء لن يرعووا ويبدلوا الجبلة الخلقية التي ورثوها عن أولئك الآباء الذين كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه والذين ما لبثوا ان ارتدوا الى عبادة العجل . ثم انتقلت الى الكلام عن هؤلاء الأبناء ثانية لتندد بهم على مابدا منهم من نفاق وتحريف وكيد ودس وغرور وحسد وتناقض وكفر الخ نقتطف منها المقاطع التالية :

١ — يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين . واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون . وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم . وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون . وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون . ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون . وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون .

٤٧ — ٥٣

٢ — وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون .

٥٥

٣ — وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين . فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون .

٥٨ — ٥٩

٤ — وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون .

٦١

٥ — وإذا أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون . ثم توليتم من بعد ذلك فلو لا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين . ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين . فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين .

٦٣ — ٦٦

٦ — وإذ قلتم نفساً فادّارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون. فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون . ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار

وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون. أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون . أولا يعلمون ان الله يعلم ما يسرون وما يعلنون . ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون . فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون . وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة قل اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله مالا تعلمون.

٧٢ — ٨٠

٧ — ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدقاً لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين . بئسما ما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباؤوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين . وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين . ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون . وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين .

٨٩ — ٩٣

٨ — ولقد أنزلنا اليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون . ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون .

٩٩ — ١٠١

ونكتفي بهذه المقتطفات من فصول سورة البقرة في صدد موقف اليهود ازاء الدعوة وصلة هذا الموقف بمواقف الآباء اللجاجية والتمردية لأن فيها الدلالة

الكافية على الموقف الجحودي من الذي وقفوه من جهة ولأن مواقفهم الأخرى متفرعة عن هذا الموقف واستمرار له من جهة اخرى . مع التنبيه على أن في غير هذه السورة آيات عديدة في صدد هذا الموقف فيها تنديد وتقريع لليهود سوف ترد في سياق شرح المواقف الأخرى التي نزلت في صددها .

ويلفت النظر في صدد هذه المقتطفات :

أولا : إلى اسلوبها فقد يكون فيها شيء مما جاء في القرآن المكي من قصص بني إسرائيل . غير انه جاء هنا بأسلوب حملة تنديدية في حين جاء هناك بأسلوب قصصي وحسب . والمتبادر أن حكمة التنزيل اقتضت ذلك بسبب الموقف الذي وقفه يهود المدينة من الدعوة .

ثانياً : إلى شدة اللحمة التي تبدو في الآيات بين الآباء والأبناء . وما تستهدفه من تقرير وحدة الجبلة والأخلاق والمواقف والأساليب بين اليهود على اختلاف أجيالهم وكون الأبناء قد توارثوا ذلك عن الإباء جيلا بعد جيل . بحيث يشعر القارىء ان الكلام يدور عن جماعة واحدة متصلة العهد والسبب اتصالا وثيقاً وهذا واضح في كثرة الانتقال والالتفات في الآيات وتبدل الضمائر بين الغائب والحاضر .

وثالثاً : إلى وصف الجحود الذي تضمنته الآيات ٨٩ — ٩٣ خاصة إذ تقرر صراحة السبب الذي جعلهم يقفون موقفاً جحودياً مناقضاً لمواقفهم السابقة للبعثة التي كانوا يستفتحون فيها على العرب فيجحدون شيئاً عرفوه وبشروا به فاستحقوا من اجله هذه الحملات الشديدة واللعنات القاصمة . وهي البغي والحقد والحسد والنقمة على الله لأنه تفضل وأوحى إلى النبي وحمله رسالته .

ورابعاً : إلى ما تدل عليه الآيات دلالة كافية وخاصة الآيات ٧٥ — ٨٠ من ان موقفهم الجحودي من الدعوة منذ أوائل العهد المدني كان حاسماً بحيث لم يبق أي أمل في ارعوائهم وتراجعهم عنه . ولقد كان هذا هو الواقع إذ ظلوا على هذا الموقف على ما تلهمه الآيات والفصول القرآنية العديدة باستثناء بعض أفراد من علمائهم نوهت بهم بعض الآيات كما ترى فيما يلي .

١ — ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر

ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين .

آل عمران ١١٢-١١٣ [١]

٢ - وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم ومـا أنزل اليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب .

آل عمران ١٩٩ [٢]

٣ - لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك ومـا أنزل مـن قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر اولئك سنؤتيهم أجراً عظيما .

النساء ١٦٢ [٣]

وما كان من احداث ومواقف متنوعة بينهم وبين النبي ﷺ والمسلمين إنما تفرع عن موقفهم الجحودي هذا .

هذا . ونريد ان ننبه الى نقطة مهمة . وهي ان اسلوب الآيات التي أوردناها والذي هو أسلوب تنديدي ليس هو كل شيء في صدد دعوة اليهود الى الإسلام فقد احتوى القرآن المدني كما احتوى القرآن المكي آيات تضمنت دعوتهم بأسلوب هادىء لا تنديد فيه مما يدل على ان ذلك الأسلوب التنديدي إنما كان كذلك بسبب ما كان من مقابلة اليهود غـير الحسنة للهجرة النبوية وانتشار الدعوة ودعوتهم الى الانضواء اليها .

وهـذه بعض الآيات المدنية التي تضمنت دعوة اهل الكتاب الذين يدخل اليهود فيهم بطبيعة الحال دعوة هائلة على سبيل المثال :

١ - فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد .

سورة آل عمران ٢٠

(١و٢) الايات جاءت بعد سياق في صدد اليهود .

(٣) الاية من سياق في صدد اليهود .

٢ – قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك بـــه شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدا بأنا مسلمون .

آل عمران ٦٤

٣ – يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدي بـه الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنـــه ويهديهم إلى صراط مستقيم .

المائدة ١٥ – ١٦

ونلفت النظر خاصة إلى آيات المائدة وبنوع خاص إلى الأولى منها إذ تضمنت إيذاناً بأن من الخطة التي سوف يسير عليها رسول الله العفو عن كثير مما يمكن أن يكون أو يصدر من المدعويين . والتجاوز عن هفواتهم وتوسعة الصدر لهم . وفي هذه الخطة ترغيب محبب لأهل الكتاب متسق مع الخطة القرآنية بصورة عامة ومع الخطة القرآنية المكية بصورة خاصة كما انها تتضمن نفي كل ما يمكن أن يرد من قول مغرض عن نية مبيتة من النبي صلى الله عليه وسلم نحو اليهود خاصة فيما كان من أحداث إجلائهم والتنكيل بهم مما سوف نزيده شرحاً فيما بعد .

●

ثانياً : مواقف اليهود الحجاجية

(١) – من هذه المواقف ما كان حول ابراهيم عليه السلام وملته وفي صدد تبجحهم بأنهم على الهدى وإن ملتهم هي خير الملل . ففي سورة البقرة الفصول التالية :

١ – وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين . بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا

يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون .

١١١–١١٣

٢ – ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل ان هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير . الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون .

١٢٠–١٢١

٣ – ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون . أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم واسماعيل واسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون . تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون . وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل إلى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم . صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون . قل اتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون . أم تقولون ان ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل أنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون .

١٣٠–١٤٠

والآيات جاءت في سياق في صدد اليهود وبني إسرائيل وبعض مضامينها في معرض مواقف اليهود وحجاجهم . وهذا ما يجعلنا نرجح ان ذكر النصارى انما كان من قبيل الاستطراد ولسان الحال . ومهما يكن من أمر هذه النقطة فالآيات على كل حال تتضمن حكاية أقوال اليهود ومواقفهم والحجاج معهم .

ويبدو من مضامينها وروحها ان اليهود قابلوا دعوة النبي إياهم إلى الإسلام بقولهم ان الهدى هو في اليهودية . واحتجوا على دعوى النبي (ﷺ) بأنه على ملة ابراهيم عليه السلام وان دعوته اليها فقالوا ان ابراهيم هو أبوهم وأبو الأنبياء وأن أبناءه ساروا على ملته وأن اليهودية التي هي دين الأنبياء والأبناء هي ملته فردت عليهم الآيات قائلة إن إبراهيم عليه السلام كان حنيفاً مسلماً . وهذه هي ملته التي يدعو اليها النبي (ﷺ) ثم قررت العقيدة الإسلامية الواجبة على الجميع ومنهم اليهود وهي الإيمان بالله وبما أنزل إلى محمد وما أنزل إلى إبراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى والنبيين جميعاً بدون تفريق بين أحد منهم . وإسلام النفس لله وحده . ودعتهم الى هذه العقيدة . وطمأنت النبي ﷺ في حال عدم استجابتهم مقررة أنهم في شقاق وخلاف وأن الله كافيه شرهم ومكرهم .

وقد نصت الآية ١١٣ خاصة من قبيل الإفحام ودحض الحجة التي يحتجون بها على ان شقاقهم ليس فيما بينهم فقط بل بين الكتابيين عامة . إذ يقرر اليهود أنهم وحدهم على الحق وأن النصارى ليسوا على شيء منه . ويقرر النصارى هذا عن اليهود في حين أن الفريقين يتلون الكتاب إلى التوراة المشتركة بينهما ويؤمنون به . وهكذا يشهد كل فريق على ضلال الفريق الثاني فتصدق الشهادة على الفريقين وتدمغهم حجة القرآن ودعوته . ويصبح لزاماً عليهم اتباع العقيدة التي قررها والتي بها وحدها يتحد الجميع في الطريق القويم ويتخلص اليهود والنصارى من شقاقهم ومشا كلهم إذا كانوا راغبين في الحق رغبة مخلصة .

ولقد جاء سورة آل عمران في صدد الحجاج حول إبراهيم وملته الفصل التالي :

(يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون . ها أنتم حاججتم فيما لكم به علم فلمَ تحاجون في ما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين . إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين) . ٥٦-٦٨

وفي هذه الآيات شيء مما تضمنته آيات سورة البقرة ١٣٠-١٤٠ كما هو ظاهر

وآيات البقرة قد جاءت في سلسلة وسياق في صدد اليهود . وعلى كل إحال فان اليهود داخلون في تعبير (أهل الكتاب) الوارد في هـذه الآيات . ويصح أن يقال إنهم مشتركون في الموقف الحجاجي الذي تضمنته .

وفي الآيات حجة جديدة . وهي إن إبرهيم عليه السلام إنما عاش قبل نزول التوراة . وإن اليهودية إنما بدأ عهدها واسمها بعد التوراة . وإن مـلة إبراهيم والحالة هذه لا يمكن أن تكون اليهودية . وإن دعوى اليهود ذلك باطلة مـن أساسها . وإن أبوة إبراهيم لليهود ليس من شأنها أن تجعلهم على ملته وأن تدعم أولويتهم به . فأولى الناس به هم الذين اتبعوا ملته حقاً . والنبي محمـد صلى الله عليه وسلم الذي اتبعها دونما انحراف والتواء ودعا اليها . والذين تابعوه في دعوته من المؤمنين .

وهكذا يكون القرآن قد دمغ اليهود في موقفهم الحجاجي الثـاني أيضاً وزيف دعوى أولويتهم بابراهيم بسبب أبوته لهم وحسب وجعل هذه الأولوية لمحمد صلى الله عليه وسلم ومن تابعه من المسلمين .

(٢) ومن مواقف اليهود الحجاجية ما كان حول نبوة النبي محمد (ﷺ) بسبب عروبته . فقد جاء في سورة الجمعة الآيات التالية :

هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياتـه ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين . وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين . قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء الله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولايتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين . ٢-٧

وروح الآيات يلهم بقوة ان اليهود ادعوا ان الله قد اختص بني اسرائيل دون سائر الأجناس بالولاية والنبوة وأنكروا نبوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم لأنه ليس من بني إسرائيل . فردت عليهم الآيات بهذه التقريرات القوية : فليس من حرج على فضل الله . وهو مطلق الإرادة يختص بفضله من يشاء . وبهذا الفضل من على الأميين أي العرب فبعث منهم رسولا يهديهم ويزكيهم ويعلمهم الكتاب

والحكمة . واليهود مكابرون في دعواهم وإنكارهم . وهم يعرفون الحق ويكتمونه والتوراة قد احتوت بشارات ببعث النبي . وان مكابرتهم والحالة هذه تجعلهم ينقضون توراتهم ولا يقومون بما أوجبته عليهم ولا يعترفون بما فيها من بشارات. ويستحقون أن يشبهوا بالحمار الذي يحمل أسفار العلم ولا ينتفع بها . ومما لا شك فيه أن النبي واجه اليهود بهذه الآيات في مشهد استؤنف فيه الحجاج مواجهة .

وما قلناه من احتواء التوراة بشارات ببعث النبي مستلهم من جملة (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً) على ضوء ما جاء في آية سورة الأعراف هذه (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ١٥٧) التي كانت تتلى علناً والتي تقرر واقعاً مشاهداً لا يمكن المماراة فيه بأن بعض اليهود قد آمنوا بالنبي الأمي محمد صلى الله عليه وسلم لأنهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة . وهذا الواقع مؤيد أيضاً بآيات عديدة أخرى أوردناها سابقاً ذكرت خبر إيمان بعض اليهود .

(٣) ومنها مواقف حجاج فيها سوء أدب نحو الله ورسوله وتحد وسخرية وتعجيز .

١ – فقد جاء في سورة آل عمران هذه الآيات .

لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق وتقول ذوقوا عذاب الحريق . ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد . الذين قالوا ان الله عهد الينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين .

١٨٠ — ١٨٣

وقد روى المفسرون في صدد القسم الأول ان النبي صلى الله عليه وسلم أرسل أبا بكر الصديق رضي الله عنه إلى محلة يهودية ليطلب منهم إعانة مالية في ظرف من الظروف تمشياً مع عادة الحلف العربي وتبعاته فردوه وقالوا ذلك القول الساخر الذي فيه سوء أدب نحو الله تعالى ورووا في صدد القسم الثاني أن أبا بكر دعاهم إلى الإسلام أو أن النبي صلى الله عليه وسلم دعاهم الى الإسلام

فأجابوه بالجواب الذي احتواه هذا القسم . وعلى كل حال فالآيات قد انطوت على موقف بذي ساخر في حق الله وموقف تحد وتعجيز وحجاج من النبي وقفها اليهود .

وننبه على أن سفر الملوك الأول [1] احتوى خبر قتل كثيرين من أنبياء الله وخبر استشراء عبادة البعل بين بني اسرائيل برعاية ملوكهم وبخاصة برعاية آحاب ملك اسرائيل وزوجته ايزابيل وخبر مناظرة بين النبي ايليا (سمي في القرآن الياس في سورتي الصافات والأنعام) وبين أنبياء البعل وتحديه إياهم بتقريب كل منهم قرباناً فمن هبطت من السماء ناراً وأكلت قربانه كان هو على الحق . وقرب الفريقان قرابينهم فنزلت نار من السماء فأكلت قرابين النبي ايليا ولكن هذه المعجزة لم تحمل آحاب وزوجته وبني إسرائيل على الارعواء عن انحرافهم الديني . وهكذا استحكمت الجملة القرآنيه في اليهود ودمغتهم مما احتوته أسفارهم .

٢ – وقد جاء في سورة النساء هذه الآيات :

ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل . والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً . من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا لياً بألسنتهم وطعناً في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا .

٤٤ – ٤٦

وقد تضمنت الآيات صورة موقف ساخر لليهود من النبي (ﷺ) حيث كانوا يلوون ألسنتهم بكلمة (راعنا) حتى تكون نعتاً للنبي (ﷺ) بالرعونة ويجهرون بعصيانه فيما يأمر ويدعو .ويستعملون كلمة (عصينا) بعد (سمعنا) بدلا من الجملة العربية المعتادة (سمعنا وأطعنا) أو (سمعاً وطاعة) . ويدعون عليه بالسوء فيقولون اسمع لا سمعت او اسمع غير مستجاب وغير مسموع . ويقصدون بكل ذلك الإنتقاص من الدعوة الإسلامية وشخص النبي والطعن

---

[1] انظر الاصحاحات ١٧-١٩ الطبعة البروتستانتية .

فيها .

ومما يروى أن أن سعداً بن أبي وقاص رضي الله عنه انتبه الى خبثهم في ليهم كلمة (راعنا) فقال لهم يا أعداء الله عليكم لعنة الله . والذي نفسي بيده لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله لأضربن عنقه .

وقد يبدو من هذا ان اليهود بعد أن كانوا يحاجون النبي (ﷺ) ويقفون موقف الجحود دون أن يخرجوا ولو في مواجهة على الأقل عن حدود الأدب رأوا في أنفسهم الجرأة فتجاوزوا هذا النطاق إلى الهجوم وبدأوه بالسخرية والبذاءة . ولعل هذا كان منهم في ظرف أزمة من الأزمات التي مرت بالنبي والمسلمين كواقعة أحد فاغتنمها اليهود فرصة للشماتة واظهار ما امتلأت به قلوبهم من غل وحقد .

٣ — وقد جاء في سورة النساء أيضاً هذا الفصل الطويل :

يسألك اهل الكتاب ان تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطاناً مبيناً . ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً وقلنا لهم لا تعدوا في السبت وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً . فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الانبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا . وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيما . وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزاً حكيما . وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً . فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات احلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً . واخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليما . لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر اولئك سنؤتيهم أجراً عظيما . إنا أوحينا اليك كما اوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحق

ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان وآتينا داود زبورا رسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك من قبل وكلم الله موسى تكليما . رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما . لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً . إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيداً إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً . إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يسيراً .

١٥٣ — ١٦٩

والآية الأولى من هذا الفصل تضمنت حكاية موقف تحد للنبي ﷺ من اليهود . والراجح الذي تلهمه الآيات ان هذا التحدي كان في مشهد حجاجي مواجه . فاحتوت الآية حكاية التحدي ثم جاءت الآيات الباقية للتعقيب على هذا الموقف . وقد ربطت موقفهم هذا موقف آبائهم . وحملت عليهم حملة شديدة بسبب موقف الآباء في زمن موسى عليه السلام وبعده وانحرافهم عن مبدأ دينهم ونقضهم الميثاق الذي أخذه الله عليهم وافترائهم على مريم وعيسى عليهما السلام والمتبادر أن الآية التي ذكرت إيمان الراسخين في العالم منهم قد استهدفت دمغ اليهود المعاصرين الذين تحدوا النبي (ﷺ) بحجة دامغة من أن العلماء الذين لا تكون نواياهم خبيثة لم يحتاجوا إلى مثل الآية التي طلبوها ليؤمنوا لأن أعلام نبوة النبي المشاهدة وصفاته التي يجدونها في التوراة كافية لهم .

والمتبادر كذلك ان الآيات التي تلت هذه الآية قد استهدفت تقرير كون وحي الله للنبي (ﷺ) مماثل لوحي الله تعالى للأنبياء السابقين الذين يعترفون بهم . وبيان تناقضهم في تحديهم وتعجيزهم . وتقرير كونهم ضالين مستحقين للخلود في النار . ومما لا ريب فيه أن النبي ﷺ قد أسمعهم هذا الفصل القوي في مشهد مواجه وأفحمهم بالحجة القرآنية الدامغة والتقريع القرآني اللاذع .

●

وفي هذا الفصل ما يمكن أن يكون تقريراً عن ما كان حالهم عليه زمن نزوله . مثل اخذهم الربا وأكلهم أموال الناس بالباطل وقولهم قلوبنا غلف وقذفهم السيدة مريم بالبهتان العظيم وزهوهم بأنهم قتلوا المسيح عليه السلام .

٤ – وفي سورة المائدة الفصل التالي :

يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعدمواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم . سماعون للكذب أكالون للسحت فإن جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين . وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين . ٤١–٤٣

وقد روي أن الآيات نزلت في حادث زنا اقترفه يهودي فطلب اليهود قضاء النبي فيه على أمل أن يقضي بغير الرجم الذي هو جزاء الزاني في التوراة . كما روي انها نزلت في حادث دم أرادوا أن يستقضوا النبي فيه على ذلك الأمل وهذه الرواية أكثر اتساقاً مع سياق الآيات التي أتت بعد هذا الفصل لأنها ذكرت أحكام التوراة في حوادث الدماء . ومهما يكن من أمر ففي الآيات صورة لموقف حجاج وتعجيز وتهويش وقفه اليهود من النبي . ويبدو منها انهم كانوا والمنافقون يداً واحدة في هذا الموقف وانه كان له أثر أليم في نفس النبي (ﷺ) لما بدا منهم من تمحل وتضليل وكذب وتحريف . فاحتوت الآيات حملة على اخلاقهم وانحرافهم . وجعلت النبي في الخيار بالحكم بينهم أو رفض الحكم . مع التنبيه الرائع على وجوب الحكم بالقسط إن حكم وعدم التأثر بموقفهم اللاأخلاقي لأن الله يحب المقسطين !

٥ – وفي سورة المائدة أيضاً هذه الآية :

وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل اليك من ربك طغياناً وكفراً وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين .

وقد روي في نزولها ان النبي (ﷺ) استعان ببعض اليهود على بعض الديات تمشياً مع واجبات الحلف الذي هم مرتبطون به فشكوا له ضيق الرزق وقالوا إن يد الله مغلولة عنهم .

وعلى كل حال ففي الآية صورة لموقف حجاج يهودي أساء اليهود فيه أدبهم في حق الله تعالى . وقد سبق منهم موقف مماثل حكته آيات آل عمران ١٨٠ – ١٨٤ التي أوردناها قبل قليل . مع فارق كونهم في ذلك الموقف كانوا يتبجحون بغناهم وقالوا إن الله فقير في حين أنهم في هذا الموقف كانوا يشكون إذ بدل الله حالهم بالعسر بعد اليسر وبالضيق بعد السعة وبالفقر بعد الغنى .وقد تضمنت الآية حملة شديدة عليهم وتسجيلا للعنة الله عليهم وتقريراً لأسباب نقمتهم وهي ما كان من فضل الله على محمد صلى الله عليه وسلم برسالته ووحيه .

ويبدو من مضمون الآية ان هذا الموقف الذي وقفوه كان منبعثاً مما كان يملأ صدورهم من الغيظ والسخط من رسوخ قدم النبي وانتشار دعوته . ولعل مما يصح أن يضاف إلى هذا ما قوى الاحتمال من انصراف معظم المسلمين عنهم ومقاطعتهم لهم بسبب مواقف الكيد والجحود التي ما فتئوا يقفونها واستجابة لامر القرآن عن موالاتهم وتحذيره منهم مما تمثله آيات عديدة منها هذه الآيات :

١ – لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة .

آل عمران ٢٨ [١]

٢ – يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين .

آل عمران ١٠٠ [٢]

٢٤ – يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم

(١و٢) هذه الايات جاءت في سياق في صدد اليهود .

الآيات إن كنتم تعقلون .

آل عمران ١١٨ [١]

٤ – بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليما . الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فان العزة لله جميعاً .

النساء ١٣٩ [٢]

٥ – يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبيناً .

النساء ١٤٤ [٣]

فأثر ذلك في حالتهم الاقتصادية تأثيراً سيئاً زاد في غيظهم وسخطهم وتبرمهم ودفعهم إلى ما كان منهم من سوء الأدب في حق الله ومن رد غير جميل لرسول الله .

ولقد جاء بعد هذه الآية آيتان في ثانيتهما قرينة قوية على صحة ما خمناه وهما :

ولو ان اهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو انهم اقاموا التوراة والانجيل وما انزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون .

٦٥ – ٦٦

حيث يلمح في الثانية انهم كانوا في حالة ضيق وان ذلك كان بسبب موقفهم الجحودي . وواضح ان في هذا فوق الصورة التي نبهنا عليها مشهداً من مشاهد الحال التي صار اليها اليهود . وننبه على ان الآيات وسياقها في حق اليهود . وهذا مؤيد بذكرهم صراحة في الآية ٦٤ والسياق الذي قبلها وانها تحتوي مشاهد وأقوالاً واقعية لهم بحيث يسوغ القول إن ذكر الإنجيل جاء من قبيل الاستطراد والتعميم .

---

(١) هذه الايات جاءت في سياق في صدد اليهود .

(٢ و ٣) المقصود من الكافرين في الايات هم اليهود على ما يستفاد من سياقها السابق واللاحق .

٤ — وفي سورة البقرة الآيتان التاليتان :

قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك باذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين . من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين .

٩٧—٩٨

وليس لليهود ذكر في الآيتين . غير أنهما جاءتا في سلسلة في حق اليهود متصلة بهما من قبل ومن بعد . كما ان الروايات تروي انهما نزلتا بمناسبة حوار وقع بين النبي صلى الله عليه وسلم وبعض اليهود حول جبريل عليه السلام . إذ سألوه عمن ينزل عليه بالوحي فلما قال لهم انه جبريل قالوا هذا عدونا . وهناك رواية تذكر انهما نزلتا بمناسبة حوار وقع بين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وبعض اليهود قالوا فيه ان جبريل وميكال عدوان لليهود .

ومهما يكن من أمر ففي الآيتين موقف من مواقف اليهود التمحلية والحجاجية متصل بوحي الله ملائكته وصلتهم بالنبي (ﷺ) كما هو المتبادر .

(٥) ومن مواقفهم الحجاجية ما كان حول القبلة والكعبة والحج .

١ — فقد جاء في سورة البقرة الفصل التالي :

سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم . وكذلك جعلناكم امة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم . ان الله بالناس لرؤوف رحيم . قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وان الذين أوتوا الكتاب ليعلمون انه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون . ولئن اتيت الذين اوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت اهواءهم من بعد ما جاءك من العلم انك إذن لمن الظالمين . الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون . الحق من ربك فلا تكونن من الممترين . ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا

الخيرات اين ماتكونوا يأت بكم الله جميعاً ان الله على كل شيء قدير . ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وانه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث مـــا كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشون ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون . كما أرسلنا فيكم رسولا يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون. فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون . ١٤٢ — ١٥٢

ولقد قال جمهور المفسرين والرواة ان المقصود بكلمة السفهاء هم اليهود . وفي الآيات قرينة على ذلك في ذكر (أهل الكتاب) وكتمانهم الحق مع علمهم به مما وصف به اليهود أكثر من مرة مما مر أمثلة عديدة منه . هذا إلى أن هذا الفصل مسبوق بسلسلة طويلة في حق اليهود .

وهكذا تكون آيات الفصل قد تضمنت فيما تضمنته صورة لموقف من مواقف اليهود الحجاجية والكيدية في ظروف تبديل القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة البيت الحرام .

وروح الآيات تلهم أنه كان لهذا التبديل وقع شديد على اليهود . فقد كان النبي (ﷺ) في مكة يتجه في صلاته الى الكعبة ثم اتجه الى المسجد الأقصى في بيت المقدس .

ومما ذكره بعض المفسرين ان هذا جرى حينما هاجر النبي إلى المدينة ليتميز المسلمون عن المشركين [١] . ومما ذكره بعضهم أن ذلك كان تآلفاً لليهود [٢] . وليس بين القولين تناقض حيث يحتمل ان يكون السببان معاً قد حفزا على تبديل الاتجاه من الكعبة الى بيت المقدس .

ولم يتحقق قصد التآلف لليهود من هذا التبديل . بل الراجح الذي تدل عليه روح الآيات والآيات العديدة الأخرى ان ذلك جعل اليهود يزهون على النبي والمسلمين باتباعهم قبلتهم واعتبارهم ذلك اعترافاً منهم بأنهم على الهدى وان

(١) انظر تفسير الطبرسي
(٢) انظر تفسير الكشاف

النبي والمسلمين يقتبسون الهدى منهم وبأنهم الأولى بالاتباع لا العكس . فحز ذلك في نفس النبي والمسلمين وانبثقت في نفس النبي امنية التحول عن سمت بيت المقدس ولا سيما وقد ظهر من اليهود ما ايأسه منهم .

وقد روي [1] « ان النبي قال لجبريل وددت ان الله صرفني عن قبلة يهود الى غيرها فقال له إنما أنا عبد مثلك . وأنت كريم على ربك فادع ربك وسله . وارتفع جبريل وجعل رسول الله يديم النظر الى السماء رجاء ان يأتيه جبريل بالذي سأله ربه فما لبث جبريل ان نزل بالآيات » .

وقد روي [2] « عن الحسن وأبي العالية وعكرمة من التابعين ان النبي ﷺ كان يكثر الدعاء بأن يوجهه الله إلى الكعبة فاستجاب الله دعاءه وانزل الآيات »

وقد روى البخاري والترمذي عن البراء (ان النبي ﷺ لما قدم الى المدينة صلى نحو بيت المقدس ستة عشر او سبعة عشر شهراً وكان يحب ان يوجه إلى الكعبة فأنزل الله :

« قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام » .

فوجه نحو الكعبة فصلى رجل معه العصر ثم مر على قوم الأنصار وهم ركوع في صلاة العصر نحو بيت المقدس فقال هو يشهد انه صلى مع رسول الله وانه قد وجه الى الكعبة فانحرفوا وهم ركوع) [3] .

وقد يمكن ان يزاد الى هذا ان النبي ﷺ في حين صار يائساً او كاليائس من اليهود تراآى له ان اتجاهه الى قبلتهم مما يضعف قوة دعوته العرب وان عودته الى قبلته الأولى مما يؤلف قلوبهم . لا سيا وهو يعرف مكانة الكعبة بيت الله القديم وارتباط جميع العرب بها وحجهم اليها . فكان ذلك مما جعله يتمنى أن يوجهه الله إلى الكعبة . ولعل فقرة (لئلا يكون للناس عليكم حجة) في الآية (١٥٠) مما يتصل بهذا المعنى ويكون قرينة على هذا هذا الخاطر .

---

(١) انظر تفسير الطبرسي

(٢) تفسير ابن كثير

(٣) التاج الجامع لأصول احاديث الرسول ج٤ ص٤٤

والمتبادر المستلهم من روح الآيات ان اليهود رأوا في التحول الجديد ضربة شديدة توجه الى مكانتهم الدينية ووسيلتهم الى الزهو على النبي والمسلمين فنشطوا الى الدس والحجاج وتشكيك المسلمين فقالوا إذا كان سحت بيت المقدس غير حق وصواب فقد اضاع النبي عبادة الذين صلوا اليه . وإذا كان حقاً وصواباً فلا معنى للتحول عنه وتكون الصلاة الى الكعبة ضائعة . وقالوا ان افعال النبي لو كانت مستندة الى وحي رباني لما نسخ اليوم ما فعله بالأمس . ولما قال اليوم قولاً ثم نقضه في الغد لاسيما في الأمور التعبدية . وهذا المعنى ورد في آيات أخرى سبقت فصل الكعبة سنوردها بعد قليل .

ويبدو من روح الآيات ومضامينها ان هذه الدسائس والدعايات والمواقف الحجاجية قد أثرت بعض الأثر في بعض المسلمين فاحتوت الآيات تطميناً لهم . وحملة على اليهود . وتثبيتاً للنبي ﷺ فيما اوحي اليه مثل تقرير كون الأمر ليس في الاتجاه نحو الشرق او الغرب وانما هو في الاتجاه الخالص الى الله وان تبديل القبلة الأولى بالثانية اي تبديل الاتجاه الأول من الكعبة الى بيت المقدس كان اختباراً ربانياً لقوة إيمان المسلمين واتباعهم الرسول : وان من نعمة الله عليهم ان بعث فيهم رسولا منهم يعلمهم ويزكيهم فحق عليهم شكره وذكره والثبات على ما فرضه وعدم جحود نعمته والتردد في اتباع ما يأمر به . وان الله لا يمكن ان يضيع عليهم ثواب ايمانهم وصلاتهم . فعليهم ان يطمئنوا ولايستمعوا لدسائس اليهود الذين يعلمون ان ما جرى هو حق وان كتموه . وان يستيقنوا ان انتقاد اليهود سفه فلا يعبأوا به . وانه لا امل في اتباعهم دعوة النبي ﷺ وقبلته فلم يبق محل لاتباعه قبلتهم وأهواءهم .

وبعض هذه المعاني واردة في آيات أخرى سابقة ايضاً حيث تلهم روحها بقوة انها ذات صلة بالموقف وانها نزلت في مناسبة . كما ترى في المجموعات التالية :

١ — ما يود الذين كفروا من اهل الكتاب ولا المشركين ان ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم . ما ننسخ من آية او ننسها نأت بخير منها او مثلها ألم تعلم ان الله على كل شيء قدير . ألم تعلم ان الله له ملك السموات والأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير . أم

تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل . ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير.

البقرة ١٠٥ — ١٠٩

٢ — ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين . لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم . ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم .

١١٤—١١٥

٣ — وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين . وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم واسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود . وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فامتعه قليلا ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير . وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم. ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم . ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين .

البقرة١٢٤—١٣١

ولقد روي في صدد الآية (١٠٦) أن اليهود كانوا يغمزون النبي ويثيرون الشك في المسلمين بقولهم إنه يأمر بالشيء ثم ينهى عنه وان هذا ليس شأن الأنبياء ويلقنونهم طلب البراهين منه على نبوته بسبيل ذلك . فاحتوت الآيات طمأنة للمسلمين ورداً عليهم . فليس من غير الجائز على الله أن ينسخ آية بآية أو حكما

بحكم أو يؤجله أو يبدله بآخر أو ينسى أحداً آية من آياته بقصد نسخها ورفعها . فإذا فعل الله شيئاً من ذلك فلحكمة يراها . ولعل الناسخ يأتي خيراً من المنسوخ . وإن الكتابيين—والمقصود هنا اليهود للقرينة القائمة— لا يريدون لهم أي خير كالمشركين وإن كثيراً منهم يودون أن يرتدوا كفاراً حسداً وحقداً . وإنه لا ينبغي للمسلمين ان يقفوا من النبي ﷺ موقف اليهود من موسى فيحاجونه ويرادونه ويسألونه البراهين . فإن مغبة هذا أن يتبدل إيمانهم بكفر . والذي يتبادر لنا أن اليهود غمزوا النبي بما غمزوه من النسخ بمناسبة تبديل القبلة لأنه من باب نسخ شيء بشيء آخر بقصد الدس والتشكيك فاحتوت الآيات ما احتوته من رد وتطمين وتحذير .

وفي الآيتين ١١٤ — ١١٥ ما يمكن أن يكون قرينة على هذا التوجيه إذ احتوت الأولى تنديداً بمن يعطل مساجد الله ويسعى في خرابها وتلهم أنها تنديد باليهود لأنهم دسوا وشككوا في ظروف تبديل القبلة وفي هذا سعي في خراب بيت الله وإهماله .

أما الثانية فباحتوائها تقرير كون المشرق لله والمغرب لله وأن الله موجود أينما يولي المسلمون وجوههم قد انطوت على معنى سعة أفق الدعوة الإسلامية واهتمامها بالجوهر دون العرض تلقيناً للمسلمين حتى لا يعبأوا بما يثيره اليهود فيهم من شكوك ويبثونه من دسائس .

أما الآيات ١٢٤ — ١٣٠ ففيها توكيد لقدسية الكعبة وتقرير كونها بيت الله ومعبده المطهر ومثابة للناس منذ طويل الأحقاب . ولصلة ابراهيم واسماعيل عليهما السلام بها وبأمن منطقتها ومناسك حجها. ولصلة العرب بابراهيم واسماعيل بالنبوة وكون بعثة نبي منهم هي أمنية من أمانيهما . ولأساس ومفهوم ملة إبراهيم وهي إسلام النفس لله وحده وكون المنحرف عن ذلك ضالا خاسراً مضيعاً لنفسه .

وننبه على ما يمكن أن تلهمه جملة (وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم) في الآية ١١٤ من اعتراف اليهود في موقف ما بفضل الكعبة وصلتها بابراهيم عليه السلام وسبقها المسجد الأقصى بسبب ذلك . إذ تكون الحجة القرآنية قد دمغتهم بما كان من اعترافهم ثم انكارهم لما اعترفوا وسعيهم

ضده بالدس والتشكيك . وإذ أريد بآيات السلسلة تقوية للحجة الدامغة تقرير واقع موقفهم وبواعثه . وهو الغرض والهوى والحقد والمماراة .

ولقد كانت هذه الفصول القرآنية تتلى جهرة . ولا بد من أن يكون اليهود قد سمعوها أو تليت عليهم في مشهد من المشاهد كما سمعها العرب على اختلاف سرائرهم .

ومع ذلك فإن اليهود لم يرعووا عن المكابرة في صدد الكعبة على ما تلهمه آيات جاءت في سورة آل عمران وهي هذه :

كل الطعام كان حلا لبني اسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل ان تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين . فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون . قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين . قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون . قل يا أهل الكتاب لمَ تصدون عن سبيل الله من آمن وتبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون . يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين .

٩٣ — ١٠٠

وقد روى المفسرون في صدد الآيات ٩٣ — ٩٥ من هذه الآيات انها نزلت في مناسبة موقف حجاجي بين النبي واليهود حول تحليل النبي ﷺ لحوم الإبل وألبانها حيث انتقد اليهود ذلك لمخالفته للتوراة وملة إبراهيم . ورووا في صدد بقية الآيات انها نزلت في سياق موقف حجاجي آخر بينه وبينهم أيضاً ادعى فيه اليهود أفضلية المسجد الأقصى على الكعبة . وكل رواية متسقة مع مضمون القسم الخاص بها من الآيات . غير انه يتبادر لنا أن الآيات نزلت دفعة واحدة في سياق موقف حجاجي واحد اتصل الموضوعان فيه . حيث يرد على البال أن اليهود أنكروا ما قررته آيات البقرة من صلة الكعبة وحجها بابراهيم وقالوا ان التوراة لا تذكر شيئاً من ذلك فردت عليهم الايات بأن التوراة لا تذكر أشياء كثيرة مما كان قبل نزولها وضربت مثلا لهم بمحرمات

الأطعمة التي ذكرتها التوراة مع ان كل طعام كان حلا لبني إسرائيل قبلها فراوغوا فتحدتهم الآيات بتلاوة التوراة واثبات عكس ذلك ومهما يكن من أمر هذا الاحتمال فإن القسم الثاني متصل اتصالا صريحاً بموقف حجاجي في شأن الكعبة وفضلها وقدمها . وقداحتوى تثبيتاً لما قررته آيات البقرة (١٢٤—١٣٠) من صلة إبراهيم عليه السلام بها وسبقها على كل بيت عبادة آخر . وبالتالي على المسجد الأقصى . وقد ذكر كعلامة لفضلها أن كل من دخل حرمها هو آمن وأن الله قد فرض حجها على كل من استطاع ذلك من الناس وأن فيها مقام إبراهيم ذا العلامات الواضحة المعروفة . ثم حملت الآيتان الأخيرتان على اليهود حملة قوية فاحتوت الآية الأولى منها سؤالا إنكارياً لليهود عن سبب صدهم عن سبيل الله وجعلها عوجاء مع ما يعرفون ما في ذلك من انحراف عن وصايا الله وأوامره . واحتوت الثانية تحذيراً للمسلمين منهم .

ومما يخطر للبال من مدى الآية الثانية أي (٩٩) أن اليهود كانوا يعترفون للعرب بفضل الكعبة وقدمها فندّدت بهم الآية لأن في إنكارهم الآن صداً عن سبيل الله الذي يعرفون حقيقته . وفي جملة (وإن الذين اوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم) في آية البقرة ١٤٣ التي جاءت في سلسلة تحويل القبلة إلى الكعبة ما يمكن أن يكون قرينة على ذلك .

(٦) ومما يصح أن يلحق بهذا المبحث ما حكته آيات عديدة عن غرور اليهود وتبجحهم اللذين كانا يبدوان منهم حينما كانت توجه اليهم الدعوة أو يحدث بينهم وبين المسلمين حجاج وجدل . حيث يمكن أن يعدا بمثابة مواقف حجاجية بل ان الآيات الواردة في هذه الصدد لتؤيد ذلك .

١ — ففي سورة البقرة الآيات التالية :

فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون . وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة قل اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون .

٧٩ — ٨٠

وقد تضمنت حكاية موقف تدليس لهم على العرب بما كانوا يظهرونه من

تعالى وينسبون ما يقولونه ويكتبونه إلى الله افتراء عليه استبقاء لما لهم عندهم من ثقة ومكانة . وحكاية لموقف تبجح ازاء ما كانوا يسمعونه من الإنذار القرآني أو حينما ينكشف تدليسهم ويظهر افتراءهم على الله وكتبه ان المذنب منهم لن يعذب في النار إلا أياماً معدودة ثم يناله عفو الله لما لهم من حظوة خاصة عنده. والمتبادر من روح الآيات ان هذا وقع أو كان يقع منهم في مشاهد وجاهية وحجاجية .

٢ — وفي سورة البقرة الآية التالية :

وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم قل فلِمَ تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين .

٩١

وقد تضمنت حكاية موقف غرور واستخفاف لهم إذ كانوا يقولون إن ما عندهم كاف لهم ولا حاجة لهم بغيره حينما كانوا يدعون إلى الإيمان بالقرآن والنبوة المحمدية .

والفقرة الثانية تلهم ان هذا القول منهم كان في مشهد حجاج ودعوة مواجه كما هو المتبادر .

وقد تضمنت تنديداً لاذعاً لهم فلو كانوا حقاً يؤمنون بما أنزل عليهم لما كانوا قتلوا أنبياء الله من قبل . وقد ربطت الفقرة بين موقفهم هذا وموقف آبائهم من قبل توكيداً من معنى كونهم يصدرون في مواقفهم عن جبلة خلقية منحرفة واحدة .

٣ — وفي نفس السورة الآيات التالية :

قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين .

٩٤—٩٥

والمتبادر أن تحدي اليهود في الآية الأولى قد كان جواباً على موقف حجاج وتبجح قالوا فيه انهم وحدهم على الهدى وانهم من أجل ذلك هم وحدهم اصحاب الحظوة عند الله في الآخرة . فتحدتهم الآية بقوة منطوية على التقريع والتزييف ثم قررت الآية الثانية واقع أمرهم وكذبهم .

ولقد جـــاء في سورة الجمعة تحد ورد وتكذيب مقارب كما ترى في الآيتين التاليتين :

« قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين » .

٦ — ٧

ويدل التكرار على أن هذا الموقف الحجاجي التبجحي منهم كان يتكرر آناً بعد آن .

٤ — وفي سورة البقرة أيضاً الآية التالية :

« وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » .

١١١

وقد رجحنا قبل أن كلمة (نصارى) في الآية من قبيل الاستطراد أو لسان الحال لأن الآية من سلسلة في صدد اليهود خاصة . وعلى كل حال فقـــد تضمنت حكاية لقول يهودي فيه تبجح في موقف حجاج مواجه كما هو المتبادر .

٥ — ومن هذا الباب هذه الآية في سورة البقرة أيضاً :

« وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » .

١٣٥

وما قلنا في مدى الآية السابقة يقال هنا بتمامه .

٦ — وفي سورة آل عمران الآية التالية :

« ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده اليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون .

٧٥

وبعض المفسرين رووا أن المعنيين في الشطر الأول من الآية هم النصارى وفي الشطر الثاني هم اليهود . والقول الثاني لا يمكن أن يصدر إلا عـــن اليهود وفيه تأييد لصواب الرواية .

وقد انطوى في قولهم شعور الترفع عن غيرهم واعتبار أنفسهم فوق الناس مما له صلة بفكرة دعواهم بأنهم شعب الله المختار . وانطوى في الوقت نفسه فيه تبجحهم الإجرامي بأنهم غير مسئولين أمام الله عن أي شيء يقترفونه ضد الأمم الأخرى بما في ذلك أكلهم أموالهم وخيانة أماناتهم . والمتبادر أن هذا القول صدر منهم في موقف حجاجي ظهرت فيه خيانتهم للأمانة . وقد كذبتهم الآية وقررت أنهم يكذبون على الله ويعلمون ذلك .

٧ — وفي سورة آل عمران أيضاً الآية التالية :

« لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم » .

١٨٨

وقد روي في صدد الآية ان النبي (ﷺ) سأل اليهود عن أمر فأجابوه إجابة غير صحيحة . ثم أخذوا يزهون بعلمهم مع أن كذبهم لم يلبث أن افتضح. وواضح من هذا ان ذلك كان في موقف حجاجي وجاهي .

٨ — وفي سورة النساء الآيات التالية :

« ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلا . أنظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثماً مبيناً » .

٤٩ — ٥٠

وقد روي أن الآيتين نزلتا بمناسبة تبجح اليهود بأن الله يكفر عنهم في النهار ما يقترفونه من ذنوب في الليل ويكفر عنهم في الليل ما يقترفونه من ذنوب في النهار . وعلى كل حال فالتبجح واضح في الآية . وهومتصل بدعوى الاختصاص بالحظوة عند الله . ومن المحتمل كثيراً ان التبجح صدر عنهم في موقف حجاجي وجاهي .

٩ — وفي سورة المائدة الآية التالية :

« وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلمَ يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما واليه المصير » .

١٨

والآية على كل حال تضمنت حكاية تبجح صريح وعجيب صادر من اليهود .

والقسم الثاني من الآية قد يدل على أنه كان في موقف حجاجي . والقول متصل بدعوى الاختصاص بالحظوة عند الله . وقد استهدفت الآية دحضها .

●

ثالثاً : دسائس اليهود بين المسلمين

١ — في سورة البقرة الآيات التالية :

وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلا وإياي فاتقون . ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون .

٤١—٤٢

وقد تضمنت نهي اليهود عن كتم الحق والباسه بالباطل عن قصد وعلم بأسلوب التقريع والزجر . والمتبادر أن ما نهوا عنه كان يصدر منهم بقصد الدس والصد والتشكيك بين المسلمين . والآيات مما أول ما نزل في المدينة . ومعنى هذا أن اليهود بدأوا بدسهم بين المسلمين من وقت مبكر من العهد المدني .

٢ — وفي نفس السورة هذه الآيات :

« أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون .

٧٥ — ٧٦

وقد تضمنت الآيات تقريراً بفقدان الأمل بارعواء اليهود وإيمانهم بالنبي واندماجهم في الإسلام والمسلمين . وصورة من صور تدليسهم على المسلمين ونفاقهم وصورة أخرى لتآمرهم عليهم بالتواصي فيما بينهم بأن لا يصدر منهم أي اعتراف بحقيقة قد يكون فيها مستمسك للمسلمين أو حجة لهم عليهم .

٣ — وفي نفس السورة الآيات التالية كذلك :

« يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم . ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

١٠٤ — ١٠٥

كان اليهود يخاطبون النبي ﷺ بكلمة (راعنا) التي كان العرب يستعملونها في معنى أعطنا سمعك . ولكنهم كانوا يلوون ألسنتهم فيها حتى تكون نعتاً بالرعونة للنبي وسخرية على ما شرحناه في مبحث مواقف اليهود الحجاجية في سياق شرح الآيات ٤٠ — ٤٤ من سورة النساء . والآية الأولى من آيتي سورة البقرة اللتين نحن في صددهما أي (١٠٤) تلهم ان اليهود وسوسوا لبعض المسلمين ليخاطبوا النبي بالكلمة بأسلوبهم فنبهتهم إلى عدم استعمالها ثم نبهتهم الآية التالية إلى عدم الإصغاء لوساوس اليهود لأنهم لا يريدون أن يأتيهم من ربهم أي خير .

٤ — ويصح أن تسلك آيات البقرة ١٤٢ — ١٥٢ في صددالقبلة التي أوردناها في المبحث السابق في هذه السلسلة حيث احتوت الإشارة إلى مواقف الدس والتشكيك اليهودية بين المسلمين على ماشرحناه في المناسبة السابقة شرحاً يغني عن التكرار .

٥ — وفي سورة آل عمران الآيات التالية :

« ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون . يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون. يا أهل الكتاب لمَ تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون . وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون . ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدي الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » .

٦٩ — ٧٣

وجمهور المفسرين على أن أهل الكتاب هنا هم اليهود وفي الآيات قرائن عديدة على ذلك . حيث جاء بعض هذه الآيات وما نسب فيها إلى أهل الكتاب في سلسلة آيات سورة البقرة الواردة صراحة في حق اليهود . ويبدو أن الآيات الثلاث الأولى قد جاءت للتنديد باليهود على الموقف الذي حكته لهم الآيات الأخرى . وقد تضمنت هذه الآيات صورة دس وتشكيك بشعة جداً . إذ أن اليهود تآمروا فيما بينهم على التظاهر بتصديق القرآن والإيمان به حتى إذا اطمأن

المسلمون لهم أعلنوا شكوكهم وارتيابهم في بعض الأمور ليثيروا فيهم البلبلة والريبة وليجعلوهم يرتدون وتواصوا كذلك فيما بينهم بعدم الاعتراف بحقيقة مواقفهم ومقاصدهم ومعارفهم إلا لبعضهم . وبعدم الاطمئنان إلا لمن دان بدينهم لئلا ينتفع بذلك غيرهم ويكون لهم عليهم حجة أو ينفذون اليهم من ثغرة ما .

٦ – وبعد قليل من هذه الآيات جاءت الآيات التالية :

« إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلا أولئك لاخلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم . وان منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون .

آل عمران ٧٧– ٧٨

وجمهور المفسرين على ان المقصود في الآيات هم اليهود أيضاً . وفيها قرائن على ذلك حيث جاء بعض ما فيها في سلسلة آيات البقرة الواردة صراحة في حق اليهود كذلك .

وتضمنت صورة من صور التدليس على المسلمين بقصد التعالم عليهم وكسب ثقتهم وضمانة المنافع الخاصة . ويبدو من الآية الأولى انهم كانوا يحلفون للمسلمين الأيمان على صحة ما يقولون من الأكاذيب والافتراءات . وكانوا يفعلون ذلك وينسبون إلى كتب الله ما ينسبون وهم يعلمون انهم كاذبون .

ومن المحتمل ان تكون الآيات متصلة بالتآمر الذي حكته الآيات السابقة . وأن يكون فريق من علماء اليهود قد نفذوا المؤامرة وأخذوا يقسمون الأيمان على صدق ما قرروه تحقيقاً لهدفهم وهو تشكيك المسلمين وردهم إلى الكفر وتفريق عن النبي وإيجاد ثغرة في صفوفهم .

٧ – وفي سورة آل عمران أيضاً الآيات التالية :

قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون . يا ايها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم

آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم . يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون . واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون .

٩٩— ١٠٣

وجمهور المفسرين على ان أهل الكتاب في الآيات هم اليهود . وفيها قرائن على ذلك .

وقد روي ان الآيات نزلت في مناسبة محاولة بعض اليهود إثارة الفتنة بين الأوس والخزرج مدفوعين بالغيظ من اجتماع شملهم والتفافهم حول النبي ﷺ وعدم نجاحهم فيما حاولوه من دس وتشكيك . والآية الأولى تندد بهم بسبب محاولة صد الناس عن سبيل الله وحملهم على الاعوجاج عن العقيدة الصحيحة . مع انهم يعرفون صحة العقيدة التي عليها المسلمون . وإنذار لهم . واحتوت الآيات التالية تحذيراً للمسلمين من الاستماع إلى دسائسهم وأمراً بالاعتصام بالله وعدم الفرقة وتذكيراً بما كان من نعمة الله عليهم في هدايتهم بعد الضلال. وجمع شملهم بعد الفرقة . وتوطيد الأخوة بينهم بعد العداء . ويبدو من صيغة الآيات وقوتها وما روته روايات السيرة انه كاد أن يكون لدس اليهود بين الأوس والخزرج عاقبة وخيمة لولا أن تدارك الله ورسوله المسلمين بتثبيتهم وهدايتهم .

٨ — وبعد هذه الآيات جاءت الآيات التالية :

١ — ولتكن منكم امة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون . ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات واولئك لهم عذاب عظيم .

١٠٤ — ١٠٥

٢ — كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن اهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون واكثرهم الفاسقون . لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون . ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس

وباؤوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون .

آل عمران ١١٠– ١١٢

والمتبادر ان هاتين المجموعتين استمرار للآيات السابقة . ففيها تحذير للمسلمين. وتهوين لشأن اليهود وقوتهم . وإشارة إلى الطابع العام الدائم الذي دمغوا به من الذلة والمسكنة وغضب الله بسبب كفرهم وتمردهم وبغيهم وسوء نيــاتهم . والتقريرات التي احتوتها متصلة بما كان من الدسائس اليهودية بــين المسلمين . ومنبهة لهؤلاء إلى واجبهم من التضامن والدعوة الى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وعدم التفرق والاختلاف كما فعل الذين من قبلهم من بعد ما جاءتهم البينات فاستحقوا عذاب الله العظيم . وقد ربطت بين مواقف اليهود المعاصرين للعهد النبوي ومواقف آبائهم فقررت ان الواقع الذي عليه المعاصرون متصل بما كان عليهم اسلافهم جيلا بعد جيل . وقد يبدو مــن الآية (١١١) أن بعض المسلمين كانوا يخشون ما لليهود من قوة ومال وعدد وحصون وسلاح وان هذه الخشية كانت منفذاً ينفذ منه اليهود اليهم في الدس والكيد مطمئنين إلى عدم جرأة المسلمين على العنف معهم . وهذا ملموح في آية سورة الحشر هذه :

(هو الذي أخرج الذين كفروا من اهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا انهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار) . ٢

فاستهدفت الآيــة (١١١) والتي تليها تهوين قوة اليهود وشأنهم في نظر المسلمين ومدى تأثيرهم فيهم . ولفت نظرهم إلى واقع حالهم من الذلة والمسكنة والجبن . ويلمح من هذا بدء تطور ازاء بغاة اليهود الذين لم يتورعوا عــن اي موقف من مواقف الأذى والكيد والدس وإثارة الفتنة . ولعل التنكيل باليهود قد اخذ طريقه التنفيذي بعد ذلك .

٩ – وفي سورة آل عمران أيضاً الآيات التالية :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الايات

إن كنتم تعقلون ها أنتم اولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور . إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط .

١١٧ — ١٢٠

وجمهور المفسرين على انها بحق اليهود وفي مضامينها قرائن على ذلك . ولقد تضمنت صورة قوية وبليغة لعداء اليهود الشديد ومكرهم ونية الشر والكيد والبغض للمسلمين . والغيظ مما بلغ اليه أمر النبي وأصحابه من القوة والعزة. وقد حذرت المسلمين من أجل ذلك من موالاتهم وخلطهم بهم واطلاعهم على شؤونهم وينطوي في الصورة كما هو المتبادر صور مما كان من مواقف اليهود ونواياهم السيئة نحو المسلمين . والتنبيه إلى ما كان عند اليهود نحو المسلمين من عداء وسوء نوايا متصل كما هو المتبادر كذلك بالمواقف المتنوعة والكثيرة العلنية والسرية والقولية والفعلية التي وقفها اليهود من النبي ﷺ والمسلمين والدعوة الإسلامية . والآيات تلهم مـا كان من شدة الروابط التي كانت تربط بعض العرب باليهود وقوة أثر هؤلاء فيهم . مما يفسر حكمة تفصيل نيات اليهود وحقيقة أمرهم ومواقفهم تجاه المسلمين للتأثير في الذين يميلون إلى التمسك بولائهم لهم وحملهم على نفض اليـد منهم .

ولقد جاء في سورة النساء نهي فيه عتاب كما ترى في هذه الآية :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً » .

١٤٤

وهذه الآية من سلسلة فيها حمـلة على المنافقين الذين يتولون الكافرين . وهم اليهود على ما تلهمه قرينة السياق . غير أن الآية تلهم أن النهي كان موجهاً إلى جمـاعة من غير المنافقين ظلوا على ما كانوا عليه من تبادل الحلف والولاء مع اليهود .

١٠ — وفي سورة النساء هذه الآيات :

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن

تضلوا السبيل . والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً . من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا لياً بألسنتهم وطعناً في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وأنظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا .

٤٤ — ٤٦

وقد تضمنت صورة للعداء والدسائس اليهودية ضد المسلمين . وعدم تورع المكابرة والارتكاس في الضلال ومناقضة وصايا كتبهم وتعاليمها وتحريفهم لها وتأويلهم إياها بالباطل بقصد إضلال المسلمين وتشكيكهم في دينهم وشق صفوفهم فضلا عما تضمنته من سوء أدبهم نحو النبي ﷺ .

ويلحظ هنا أن اليهود قد وصفوا بأنهم أعداء المسلمين . ولعل هذا الوصف يأتي لأول مرة في الآيات . ومما لا ريب فيه ان هذا كان بسبب استمرارهم في المواقف الكيدية والمؤذية .

١٢ — وفي سورة المائدة الايات التالية :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين . وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً ذلك بأنهم قوم لا يعقلون . قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل من قبل وإن أكثركم فاسقون. قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل. وإذا جاؤوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون . وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون :

٥٧—٦٣

ومضامين الايات وخاصة الايات ٦٠ و ٦٣ تدل على أن اليهود هم المقصودون. وفي الايات تحذير جديد للمسلمين عن موالاتهم . وتنبيه لهم على أن من مكرهم بهم ونقمتهم منهم اتخذوا دينهم وآذانهم إلى الصلاة هزواً ولعباً . وفي الايات

صورة اخرى لمكرهم ودسائسهم إذ كانوا يأتون إلى المسلمين فيعلنون إيمانهم وهم كاذبون من قبيل التدليس والتضليل . ولعلهم كانوا يستهدفون بذلك كسب ثقة المسلمين وطمأنينتهم حتى يكون مكرهم ودسهم وتضليلهم أنفذ . وهـذا ما احتوته الاية (٧٢) من سورة آل عمران على مر شرحه في الفقرة (٥) من هذا المبحث . والايتان الأخيرتان وإن كانتا متصلتين بأخلاقهم فانهما كذلك بسبيل بيان ما كانوا يعاملون المسلمين به على الأرجح من استحلال مال وعدوان وأذى . وبكلمة اخرى ان فيهما صورة لمواقفهم من المسلمين . والايـة الاخيرة خاصة احتوت صورة لما كان من موقف احبارهم وربانييهم من هذه الأعمال الاثمة نحو المسلمين حيث كانوا يشجعونهم عليها بسكوتهم وعدم تحذيرهم ونهيهم .

●

رابعاً : تآمر اليهود مع المنافقين

١ – لعل أول آيـة ذكرت فيها صلات اليهود بالمنافقين هي آيـة البقرة هذه :

« وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا انا معكم إنما نحن مستهزئون » .

١٤

حيث يروي جمهور المفسرين ان « شياطينهم » تعني اليهود . والاية مـن سلسلة وصفية للمنافقين . ووصف اليهود بشياطين المنافقين يفيد انهم هم الذين كانوا يوسوسون المنافقين ويغوونهم . وذكر اختلاء المنافقين بهم يدل بصراحة على الأثر الكبير الذي كان لليهود في حركة النفاق والمنافقين . وعلى التضامن الوثيق بين الفريقين تجاه الدعوة الاسلامية .

ولقد احتوت سلسلة الايات حملة قوية على المنافقين . والمتبادر أن تواثقهم وتضامنهم مع اليهود من الأسباب المباشرة لهذه الحملة . والاية المار ذكرها مع بقية السلسلة من ابكر ما نزل من القرآن المدني . وهذا يدل كما هو المتبادر على ان ذلـك التواثق والتضامن بين اليهود والمنافقين . وذلك النشاط الماكر الذي نشطه اليهود في صدد هذا التواثق والتضامن قد كان منذ عهد مبكر من الهجرة

النبوية ثم استمر إلى ان مكن الله نبيه من تطهير المدينة من اليهود في أواسط العهد المدني وكان خلال ذلك ما كان من مواقف وحركات شديدة الأذى والكيد للنبي والمسلمين ودعوة الإسلامية .

٢ – في سورة النساء الايات التالية :

« بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليما . الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً » .

١٣٨ – ١٣٩

وجمهور المفسرين على ان الكافرين في هذه الايات هم اليهود . وفيها قرينة مؤيدة لذلك . وتولى المنافقين لليهود صورة من صور التآمر المتوطد بين الفريقين كما هو المتبادر .

والايات في اصلها في المنافقين مباشرة . وقد انطوى فيها تقرير كون توليهم لليهود مظهراً من مظاهر نفاقهم الذي استحقوا به الوعيد. والسؤال الاستنكاري في الاية الثانية يدل على ان المنافقين كانوا يتولون اليهود بقصد الاعتزاز بهم . وهذا مما يزيد الصورة بشاعة والوعيد قوة .

هذا . والاسلوب المطلق العام الذي جاءت به الايتان ينطوي على تلقين مستمر المدى في حق كل من يتولى الكفار عامة واليهود خاصة ويتواثق معهم من المسلمين .

٣ – في سورة المائدة الايات التالية :

يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين . فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين . ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين اقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين .

٥١ – ٥٣

والمفسرون يروون ان المقصود بالذين (في قلوبهم مرض) المنافقون الذين كانوا متحالفين مع اليهود وانهم لما عوتبوا على ذلك قالوا إنا نحافظ على محالفتنا

معهم لأننا نخشى عواقب الأيام .

وهكذا تكون الآيات قد انطوت على صورة من صور التآمر والتحالف بين اليهود والمنافقين واستمراره رغم مـا تكرر من نهي الله ورسوله عن ذلـك وتحذيرهما منه .

٤ — في سورة محمد الآيات التالية :

« إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم . ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا مـا أنزل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم إسرارهم » .

٢٥—٢٦

وجمهور المفسرين على أن الآية الأولى عنت المنافقين وان المقصود بالذين كرهوا ما أنزل الله هم اليهود . وهكذا تكون الآيات قد انطوت على صورة من صور التآمر بين الفريقين ضد الإسلام والمسلمين . وفي ما حكته الآية الثانية من وعـد المنافقين لليهود بطاعتهم والسير على الخطة التي يضعونها صورة لبعض ما كان لليهود من التوجيه والتأثير والنفوذ في المنافقين وحركاتهم .

والتعليل الذي بدأ في مطلع هذه الآية يدل على اعتبار ما كان من وعـد المنافقين لليهود بالطاعة مظهراً من مظاهر النفـاق والمنافقين . وعلى أن الحملة التنديدية التي احتوتها الآية الأولى ضد المنافقين إنما هي من أجل ذلك .

وواضح أن في كل هذا تلقيناً مستمر المدى لكل مسلم في كل وقت .

٥ — في سورة المجادلة الاية التالية :

« ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون » .

١٤

وجمهور المفسرين على أن الاية في صدد تولي المنافقين لليهود . وفي الاية قرينة على ذلك . وفيها صورة من صور التآمر كما هو واضح . والأسلوب التنديدي ضد المنافقين في الاية يدل على أن توليهم اليهود المغضوب عليهم الذين ليسوا من المسلمين وليسوا من قبيلة المنافقين هو سبب التنديد بهم ومظهر من مظاهر نفـاقهم . وتلقينها مستمر المدى بطبيعة الحال .

٦ – في سورة الحشر الاية التالية :

« ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون ». ١١

وجمهور المفسرين على ان الذين كفروا من أهل الكتاب هم اليهود . ومعظم سورة الحشر نزل في صدد إجلاء يهود بني النضير عن المدينة وقد نعتتهم الاية الثانية من السورة بنفس النعت :

(هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر) .. ٢٠

وفي الاية صورة قوية للتضامن والتحالف الوثيقين بين اليهود والمنافقين كأثر من آثار التآمر المتوطد بينهما . وأسلوب الاية التنديدي يدل على أن التنديد بالمنافقين إنما هو بسبب ذلك التضامن والتحالف وانه من أسباب صفة النفاق ومظاهر المنافقين . وتلقين الاية مستمر المدى كذلك كما هو المتبادر .

...

وقد تبدو الايات التي انطوى فيها صور صريحة للتآمر بين اليهود والمنافقين قليلة . ولكن هذا لا يعني قلة الصور . ويتبادر لنا أنه مظهر من مظاهر مهارة اليهود في حرصهم على عدم الظهور بصراحة مع المنافقين في المواقف المؤذيةالضارة الكثيرة التي كانوا يقفونها لأنهم يعرفون ان المنافقين موضع شبهة ونقمة من عامة المسلمين.وأن ظهورهم معهم سيجر إلى اشتداد الشبهة والنقمة عليهمويصعف دور المنافقين في الوقت ذاته . وما دام القرآن وقد وصف اليهود بأنهم شياطين المنافقين وتكررت فيه الإشارة إلى استمرار التولي بين اليهود والمنافقين فيصح القول ان اليهود كانوا وراء معظم المواقف التي وقفها المنافقون وانهم يتحملون مسئوليتها .

...

وقد يكون هناك نقطة يحسن الإلمام بها وتوضيحها في هذا المقام . فقد يقال إن التحالف بين اليهود وبطون الأوس والخزرج كان سابقاً الإسلام والهجرة . وان النبي ﷺ قد اعترف بها وأبقى عليها في كتاب الموادعة الذي كتبه للناس

بعد قليل من هجرته إلى المدينة . وإن تمسك فريق بها او اعتبار أنفسهم مقيدين بها لا غبار عليه لأنه مما يوجبه الوفاء بالعهد . وإن الحملة على ذلك والنهي عنه يتناقض مع هذا الواجب . وتوضيحاً لذلك ووضعاً للامر في نصابه الحق نقول :

أولا : إن المندد بالذين يتولون اليهود هم على الأعم الأغلب فريق المنافقين فقط الذين وقفوا منذ بدء الهجرة النبوية من النبي ﷺ ودعوته موقف الكيد والمكر والتآمر في حين أن المحالفات كانت بين سائر فروع اليهود وسائر فروع الأوس والخزرج . ومعنى هذا ان المسلمين المخلصين استجابوا لتحذير الله ورسوله الذي كان معللا بمواقف كيداليهودومكرهمودسهم وتآمرهم وعدائهم وبغضائهم للمسلمين . وإذ كان بعض المسلمين ترددوا أو تأخروا في نفض أيديهم من المحالفة فإن الذين جاهروا بالتمسك بها ولم يعبأوا بالتحذير والنهي بوقاحة وإصرار وتمرد هم المنافقون فقط . وهذا يدل بصراحة وقوة على أن الباعث لهم على هذا الموقف ليس الإخلاص للحلف وواجب الوفاء بالعهد وإنما ما جمع بين اليهود وبينهم من وحدة البغض والكيد للاسلام ونبيه . وما توطد بين الفريقين من تواثق وتضامن وتآمر على النكاية بهما ولا يصح أن يعد من قبيل الوفاء بالعهد ولو أن المنافقين كانوا يعتذرون بذلك .

وثانياً : ان تلك المواقف التي حكاها القرآن عن اليهود من شأنها أن تكون نقضاً من جانبهم لكل عهد بينهم وبين المسلمين . ولقد اعتبرت كذلك بنص القرآن كما تلهمه الايات التالية :

١ — أوكلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون .

البقرة ١٠٠

٢ — إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون .

الأنفال ٥٥—٥٦

والايات مما نزل مبكراً . وهو أمر يدل على أن تلك المواقف قد اعتبرت نقضاً منذ وقت مبكر . فدعوة القرآن إلى عدم موالاتهم واتخاذهم بطانة واطاعتهم وتحذيره منهم شيء طبيعي سائغ لا يتمحل فيه إلا مكابر أو مغرض

ومثل هذا يقال في صدد ما يمكن أن يعتذر به المنافقون أو يقال بلسانهم من الأعذار الزائفة الكاذبة التي كانوا يتسترون بها والتي فضح القرآن نياتهم فيها فاستحكمت فيهم حجته وحملته .

●

خامساً : تآمر اليهود مع المشركين

إن الايات الواردة في تآمر اليهود مع المشركين هي أيضاً قليلة بل أقل مما ورد في تآمرهم مع المنافقين . وهذا طبيعي فيما يبدو . لأن اليهود في المدينة . والصلات بينهم وبين أهلها أوثق . والشقة بعيدة عن مكة التي كان زعماؤها قادة حركة العداء للنبي والدعوة الاسلامية والمسلمين . ولم يكن على الأغلب مشركون ذوو قوة وعدد في المدينة نفسها .

ومع ذلك ففي الايات القليلة الواردة صور ذات خطورة كبيرة في الأثر والمدى .

١ — منها الايات التالية في سورة النساء :

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا . أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً » .

٥١ — ٥٢

ولقد روى المفسرون في صدد الايتين روايات مفادها أن وفداً على رأسه كعب بن الأشرف أو ابن أبي الحقيق وأخطب بن حيي وأبو عمارة وهودة بن قيس من بني النضير وغيرهم ذهبوا إلى مكة بعد وقعة أحد ليحزبوا الأحزاب على المسلمين [1] فلما قدموا قال بعض رجال قريش هؤلاء احبار اليهود واهل العلم

---

(١) يروى ابن سعد ان كعب بن الاشرف قتل قبل وقعة أحد فتكون رآسته للوفد اليهودي غير صحيحة (انظر ج ٣ ص ٧٠) ويروي ابن سعد زعماء بني النضير قد ذهبوا مع جماعات منهم الى خيبر واقاموا فيها حينما اجلاهم النبي عن المدينة وان نفراً من اشرافهم ووجوههم ساروا من خيبر إلى مكة ثم الى غطفان وألبوهم على غزو المدينة (٩٩ — ١٠٠ و ١٠٨ ج٣) وهذا هو الاوجه حيث يكون زعماء النضير أرادوا الانتقام لأنفسهم .

بالكتب الأولى فاسألوهم أدينكم خير أم دين محمد فسألوهم فقالوا دينكم خير من دينه وأنتم أهدى منه وممن تبعه . وقد دعا الوفد اليهودي زعماء قريش إلى التحالف والزحف على المدينة لاستئصال شأفة المسلمين والنبي فوافقوا وذهبوا جميعاً إلى الكعبة واقسموا عند اصنامها على الوفاء بالعهد وتمسح زعماء اليهود أو سجدوا للاصنام ارضاء وتزلفاً لقريش. وانهم بعد ذلك ذهبوا الى منازل قبائل غطفان وغيرها من قبائل العرب المشركين وتحالفوا معهم على الهدف نفسه .

وأبشع ما في الصورة المنطوية في الايات بل أشنع ما كان من اليهود أن يدفعهم الحقد والحسد والعداء للنبي ودعوته والمسلمين إلى عدم التورع في الشهادة الفاجرة بأن الشرك خير من التوحيد وان المشركين أهدى من المسلمين . ثم إلى عدم التورع باعلانهم الإيمان بأصنام المشركين وتكريمهم لها . وهكذا ينكرون أساس دينهم الذي هو الإيمان بالله وحده في سبيل محاربة النبي الداعي إلى ذلك والناهي عن الشرك والإثم والفواحش . وليس من ريب في أن موقف هذا الفريق يدمغه بطابع من العار لا يمكن أن يمحى .

ولقد كان من نتيجة رحلة الوفد اليهودي وعقده الحلف مع زعماء مكة وقبائل المشركين ان زحفوا بجيوش جرارة على المدينة . فكان ما عرف بوقعة الخندق او الأحزاب في السنة الهجرية الخامسة . وأن زلزل هذا الزحف أعصاب كثير من المسلمين المخلصين وادخل في قلوبهم الرعب . وان كاد يعصف فعلا بالاسلام لولا ان تداركهم الله بنعمته وصرف عنهم الاحزاب . ولم يكن قد بقي من اليهود في المدينة إلا بنو قريظة . وحين جاءت الاحزاب اعلنوا نقض عهدهم مع النبي والمسلمين وظاهروا الجيوش الزاحفة على المدينة مما زاد في حرج الموقف وشدة خطورته .

وهذا وذاك مما أشارت اليه الايات التالية من سورة الأحزاب :

١ — يا ايها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً . إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً . وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً . وإذ قالت طائفة منهم

يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً . ولو دخلت عليهم من اقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها وما تلبثوا بها إلا يسيراً » .

٩ — ١٤

٤ — ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً . وأنزل الذين ظاهروهم من اهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً . وأورثكم أرضهم وديارهم واموالهم وأرضاً لم تطؤوها وكان الله على كل شيء قديراً .

٢٥ — ٢٧

والمجموعة الأولى تنطوي على صورة لما كان من موقف المنافقين في هذه الأزمة العصيبة من موقف خطير . والاحتمال قوي جداً أن يكون لتحريض اليهود اثر في هذا الموقف حيث يكون في هذا صورة من صور التآمر بين اليهود والمنافقين ايضاً .

٢ — ومن الايات التي تشير الى تآمر اليهود مع المشركين هذه الايات من سورة المائدة :

« لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون . ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل اليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون .

٧٨ — ٨١

وفي الايات اشارة صريحة إلى ان كثيراً من اليهود في زمن النبي ﷺ كانوا يتولون الكافرين ويتواثقون معهم . وقد حملت عليهم حملة شديدة من أجل ذلك لمناقضة موقفهم لواجب دينهم . وربطت في هذه المناسبة بينهم وبين اسلافهم الذين كانوا لا يتناهون عن المنكرات — اي لا ينكرها احد على احد منهم — والذين استحقوا لعنة الله بعصيانهم وعدوانهم . ومما لا ريب فيه أن موالاتهم للكفار إنما كان بسائق البغضاء التي تجمع بين الفريقين نحو الاسلام

ورسوله وأتباعه . وبقصد التآمر على تقويض أركانهم وهدم بنيانهم .وإذا لوحظ أن الكفار كانوا في حالة حرب مستمرة مع المسلمين بدا لنا أن ذلك الولاء كان نوعاً من المظاهرة الحربية . وكان بالنتيجة شديد الخطورة بعيد المدى والأثر . ولقد أعقب هذه الآيات هذه الآية : (لتجدن أشد النــــاس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) حيث يبدو منها أن مواقف اليهود العدائـــية كانت مكشوفة وأن آثارها كانت ملموسة فوصفت اليهود بناء على ذلـــك بأنهم أشد الناس عداوة للمسلمين وقرنتهم في ذلك بالمشركين الذين كان منهم ما كان من شدة الصد والأذى وكانوا في حالة حرب مستمرة مع المسلمين . ويستلهم من الآية (٨١) أن من اليهود من كان يتظاهر كذباً بالإيمان والتصديق بالنبي ففضحتهم وأقامت عليهم الحجة في موقفهم الذي لا يمكن أن يكون لو كانوا صادقين في ايمانهم . وهذه الصورة من المكر مما تكرر وروده في آيات عدة أوردناها سابقاً.

الفصل الخامس

وقائع التنكيل باليهود وبواعثها ونتائجها

تمهيد

إن اليهود لم يبقوا في نطاق جحود نبوة النبي ﷺ والقرآن الكريم . وفي المكايدات والمماحكات والدسائس الكلامية . بل تجاوزوه إلى الغدر ونقض العهد والعداء الفعلي الصريح منذ عهد مبكر على ما ذكرناه في مناسبة سابقة . فكان تجاوزهم هذا سبباً مباشراً لدور التنكيل الذي بدأت فصوله في الربع الأول من العهد المدني ثم استمرت إلى أن تم إجلاؤهم عن المدينة وخضد شوكتهم وإجلاء بعضهم عن القرى الأخرى في الربعين الثاني والثالث منه .

ولقد تعددت فصول هذا الدور . وكان لكل فصل أسبابه الخاصة كما كان موضوع كل فصل فريقاً دون آخر من اليهود . وهذا يدل على أن التنكيل إنما كان يجري بمقدار الضرورة وبقصد إزالة الضرر والخطر المحققين للفريق الذي حق عليه التنكيل فحسب .

كما يدل على أن اليهود لم يقدموا جميعهم على الخروج من نطاق الكلام إلى العداء العملي والغدر في وقت واحد . وسبب ذلك فيما هو المتبادر أنهم لم يكونوا مجموعي الشمل في سلك أو كيان سياسي وحربي واحد ومتواثق . وإنما كانوا كتلاً مستقلة . كل كتلة أو قبيلة تسكن في محلة خاصة بها . وكان بينهم خصومات أيضاً بدليل انهم كانوا متوزعين في التحالف والولاء بين بطون قبيلتي الأوس والخزرج اللتين كانت بينهما خصومات كذلك على ما ذكرناه في مناسبة سابقة .

ونحن نعرف أن بعض الكتاب من يهود ومبشرين ومستشرقين مغرضين

يزعمون أن النبي (ﷺ) قد بيت نية التنكيل بهم وإثارة حرب عنصرية دينية ضدهم منذ البدء . وانه قد عمد إلى تنفيذ نيته بالتدريج وبأناس بعد أناس لأنه لم يكن له قبل بهم مجتمعين . وقد غمزوه بالنكث بما عاهدهم عليه من الحرية الدينية والاقتصادية والاجتماعية . وبالميل إلى سفك الدم . وبالطمع في أموالهم وإغداقها على المسلمين . مما صدر منهم بسائق التعصب والغرض وعدم التروي في فهم آيات القرآن التي احتوت ما فيه الحجة القاطعة والبينة الحاسمة على زيف ما زعموا وسفه ما غمزوا .

فالقرآن قد ذكر في آيات البقرة ٨٤ — ٨٥ ما كانوا يقعون فيه من مخالفات دينية في قتل بعضهم بعضاً وأسر بعضهم بعضاً في معرض الذم والتنديد مما يدل على ما كان بينهم من عداء ونزاع وخصومة وعلى عدم تكتلهم .

والروايات الوثيقة تذكر ان منهم من كان متحالفاً مع بطون الأوس ومنهم من كان متحالفاً مع بطون الخزرج قبل الإسلام . وكانوا يقاتلون بعضهم حينما كان ينشب القتال بين الأوس والخزرج فيقاتل حلفاء الأوس منهم الخزرج وحلفاءهم من اليهود ويقاتل حلفاء الخزرج منهم الأوس وحلفاءهم من اليهود فلم يبق أي محل للارتياب في أن ظروفهم الاجتماعية المتقدمة على البعثة كانت هي العامل في عدم تكتلهم مما يسوغ الترجيح إن لم نقل الجزم بصحة ما قلناه من أنهم لم يخرجوا جميعهم في وقت واحد إلى نطاق الغدر والعداء العملي ومن أن التنكيل إنما كان يقع في نطاق إزالة خطر الفريق المبادر إلى الخروج من ذلك النطاق .

ولقد روت روايات السيرة أن بني قريظة ظلوا محافظين على عهودهم فبقوا في المدينة . فلما ذهب زعماء بني النضير إلى مكة والقبائل وحزبوا الأحزاب جاؤوا اليهم وطلبوا منهم نقض العهود ومظاهرة الأحزاب التي اعتزمت على غزو المدينة فتشاءموا وتمنعوا ثم استجابوا بعد إلحاح وإغراء شديدين [1] مما فيه توكيد لما قلناه : ولقد احتوت الآيات القرآنية حكاية مواقف متنوعة وكثيرة لليهود فيها تعجيز وتحد ومكابرة وجدل وسخرية بل ودسائس ومؤامرات وإثارة

---

(١) انظر ابن هشام ج٣ ص ٢٣٥ وبعدها .

فتن في صدد الجحود بالنبوة والقرآن وتعطيل الدعوة وتشكيك المسلمين وتفريق شملهم وردهم عن الإسلام كما احتوت مساجلات متنوعة معهم في الجدل حيناً والتنديد حيناً والإفحام حيناً والدعوة والوعظ والتذكير والإنذار والتبشير حيناً والاهابة بهم إلى تخفيف الغلواء والتوبة حيناً . وبكلمة أخرى لقد اتسع صدر النبي (ﷺ) لهم سعة كبيرة . وتمتعوا بحريتهم في التمسك بدينهم ومباشرة شؤونهم الاقتصادية والاستمرار في محالفاتهم واتصالاتهم السياسية والشخصية والاحتفاظ بكيانهم الطائفي والثقافي والقضائي دون انتقال من دور المساجلة إلى طور التنكيل مما تنطوي صوره في آيات كثيرة مرت في المناسبات السابقة ومما أوضحته روايات السيرة الوثيقة التي لا يمكن أن يقال انها مخترعة للتبرير لأنه لم يكن آنذاك قضية تحتاج إلى تبرير . ولم ينتقل إلى طور التنكيل مع أي فريق منهم إلا بعد أن يطفح الكيل من دسائسه ومكائده وأذاه وبعد أن يكون قد انتقل إلى موقف النكث بالعهد والأذى والغدر والتآمر والإضرار بكيان المسلمين مما تلهمه أو تدل عليه الآيات والفصول التي مرت سابقاً والتي سترد بعد عند الكلام على كل واقعة ومما توضحه الرواياتالوثيقة معاً .

واليك الآن تفصيل الوقائع :

١ ـ قتل أبي عفك

كان أول حادث تنكيلي في اليهود سجلته الروايات قتل أبي عفك اليهودي . وكان شيخاً كبيراً . وكان شاعراً وكان يحرض على رسول الله ﷺ . فنذر سالم بن عمير من اصحاب رسول الله وشهود بدر أن يقتله أو يموت دون ذلك . واخذ يترقب فرصة لوفاء نذره حتى كانت ليلة صائفة فنام أبو عفك بالفناء وعلم سالم بذلك فأقبل عليه ووضع السيف على كبده ثم اعتمد عليه حتى خش في الفراش فكان في ذلك حتفه [١] .

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ج ٣ ص ٦٧

في القرآن في صدد ذلك إشارات أوضحتها الروايات . ولقد ذكرت هذه الروايات التي ليس بينها خلاف جوهري [١] ان هذه الواقعة كانت بعد وقعة بدر بثلاثة أشهر . ومما ذكرته ان بني قينقاع كانوا يسكنون المدينة ولهم سوق خاص وانهم أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن بدء وقعتهم كان ان امرأة من العرب جاءت بجلب لها فباعته في سوقهم . وجلست إلى صائغ منهم فجعل بعضهم يريدونها على كشف وجهها فأبت فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده بظهرها فلما قامت انكشفت سوأتهافضحكوامنها فصاحت فوثب رجل من المسلمين فقتل الصائغ فشد اليهود على المسلم فقتلوه فاستصرخ أهله المسلمين فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع . وحاصرهم النبي حتى نزلوا على حكمه . وكانوا حلفاء الخزرج فتصدى عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي كبير المنافقين للنبي صلى الله عليه وسلم قائلا له أحسن في موالي يا محمد فما زال يلح بأمرهم حتى وهبهم له على أن يخرجوا من يثرب . وسمح لهم بأخذ أموالهم وأثقالهم وخفيف سلاحهم فخرجوا إلى اذرعات .

ولا تذكر الروايات ان المسلمين استولوا على أراض ومزارع لهم أو سمحوا لهم باقامة وكلاء لهم عليها كما كان الأمر بالنسبة لبني النضير وبني قريظة على ما سوف يرد بعد حيث يفيد هذا انهم كانوا تجاراً وصناعاً فقط .

ومع هذه الخلاصة فان الروايات ذكرت أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم استشعر من بني قينقاع الغيظ من نصر المسلمين في بدر — ولعلهم أخذوا يكشفون عن غيظهم ويغمزون المسلمين — فجمعهم وحذرهم فكان جوابهم وقحاً إذ قالوا له لايغرنك ما نلت فانك لقيت قوماً لاعلم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة . وإنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس . وأن آيات سورة آل عمران هذه :

(قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم

---

(١) انظر ابن هشام ج ٢ ص ٤٢٦ وبعدها وطبقات ابن سعد ج٣ ص٦٧ وبعدها.

آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأنصار) .

١٢ — ١٣

إنما نزلت فيهم . وظروف نزول الآيات تجعل هذه الرواية سائغة لأنهانزلت بعد وقعة بدر . واحتوت إشارة اليها على سبيل الإنذار . ولا محل للتوهم بأن ذلك كان لكفار مكة . فالأمر الرباني بسبيل تبليغه لأناس مواجهة . ومايزال بينهم وبين النبي صلات سلم . وهذا إنما ينطبق على اليهود وليس على كفار مكة الذين كانوا في حالة حرب مع المسلمين .

وإذا كان ثمة شيء يلاحظ على هذا الذي اتفق ابن سعد وابن هشام عـــلى روايته في صدد نزول الآيتين فهو أن الآيتين أبعد مدى مما رويا . وانهما لتلهمان أنه قد بدا من اليهود ما يصح أن يعد نقضاً أو تحرشاً بحرب وقتال . فأمر الله رسوله بإنذارهم ودعوتهم الى الاعتبار بما حل في كفار مكة في بدر .

ولقد احتوت آية من آيات سورة البقرة إشارة صريحة إلى نبذ فريق من اليهود كما ترى فيها :

(أوكلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون) .

١٠٠

وهذه الآية من السلسلة الطويلة في حق اليهود التي أوردناها في منـــاسبات سابقة . وهي مما نزل مبكراً . فيسوغ القول ان الاشارة التي تضمنتها هي أول نقض بعهد بدا من فريق من اليهود . وهو على الأرجح نقض بني قينقاع الذين كانوا اول كتلة يهودية وقع عليها التنكيل بسببه .

ومن المحتمل كثيراً أن يكون حلفهم من الخزرج الذين كان كبير المنافقين عبد الله بن ابي سلول من زعمائهم مما جرأهم على ماجرأوا عليه من نقض ووقاحة وبغي .

ولقد احتوت سورة الأنفال آيات فيـــها اشارة اخرى الى نقض يهودي وهي هذه :

إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم

ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون . فاما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون . وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين) .

٥٥ — ٥٨

وسورة الأنفال نزلت عقب واقعة بدر . ولقد روى ابن سعد أنه لما كانت وقعة بدر أظهر بنو قينقاع البغي والحسد ونبذوا العهد وكانوا أشجع اليهود فأنزل الله (وإما تخافن من قوم خيانة .. إلى آخر الآية) فقال رسول الله أنا أخاف بني قينقاع فسار اليهم بهذه الآية . والآية إنما نزلت مع ما سبقها ولحقها من آيات فيكون سير النبي اليهم بسبب نقضهم العهد المرة بعد المرة . وتكون الرواية متسقة مع ظروف وقعتهم . مع التنبيه على أن الآية أبعد مدى من الرواية أيضاً في ذكرها نقض اليهود العهد المرة بعد المرة .

وعلى هذا فيكون حادث المرأة في سوق بني قينقاع السبب المباشر الذي طفح به كأس أذاهم ونقضهم وكيدهم .

وتعبير (فانبذ اليهم على سواء) يعني الأمر باعلانهم انه يقف منهم نفس الموقف الذي وقفوه وهي حل العهد القائم . وفي التعبير مغزى رائع . وهو تلقين عدم المبادرة الى القتال بدون إعلان ما دام هناك عهد قائم . كذلك فان تعبير (فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون) جدير بلفت النظر اليه إذ انطوى فيه تلقين قصد تخويف اليهود الآخرين بما يحل ببني قينقاع لعل ذلك يجدي ويجعلهم يرعوون ولا يغدرون ويمكن تفادي الحرب معهم . وفي هذا وذاك رد على المزاعم المغرضة التي أشرنا اليها في مطلع الفصل .

• • •

٣ ـ قتل كعب بن الاشرف

كان هذا اليهودي شاعراً يهجو النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه ويحرض عليهم ويؤذيهم . ولما كانت وقعة بدر كبت وذل وقال بطن الأرض خير من ظهرها اليوم . وخرج إلى مكة فبكى قتلى قريش ورثاهم شعراً وحرض قريش على المسلمين . ولما عاد أخذ يشبب بنساء المسلمين ويهجوهم ويؤذيهم فقال النبي

(اللهم اكفني ابن الأشرف بمــا شئت في إعلانه الشر وقوله الاشعار) ثم هتف بالمسلمين قائلا (من لي بابن الأشرف فقد آذاني) فبادر محمد بن أبي مسلمة فقال أنا له يا رسول الله) فقال له (فافعل إن قدرت على ذلك) فاستأذن النبي باستعمال الحيلة معه لأنه متحصن بقومه وحصنه فأذن له . فذهب مع نفر مــن قومه الأوس اليه واظهروا له تشاؤمهم مــن استفحال امر النبي حتى اطمأن لهم ثم استسنحوا غرة منه فوثبوا عليه وقتلوه واحتزوا رأسه وأتوا به إلى النبي الذي تهلل وسر وأثنى عليهم قائلا (أفلحت الوجوه (وكان ذلك في الشهر الخامس والعشرين من الهجرة [1] .

٤ ـ إجلاء بني النضير

وهؤلاء كانوا ثانية كتلة يهودية وقع علــيها التنكيل . وفي سورة الحشر فصلان يجمع رواة التفسير على انهما في صدد هذه الوقعة . وكان ابن عباس يسمي سورة الحشر سورة بني النضير مما فيه تأييد لذلك . وهذان هما الفصلان :

١ ـ هو الذي أخرج الذين كفروا من اهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا انهم مانعتهم حصونهم من الله فآتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا اولي الأبصار . ولولا ان كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيــا ولهم في الآخرة عذاب النار . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فان الله شديــد العقاب . ما قطعتم من لينة [2] او تركتموها قائمة على اصولها فباذن الله وليخزي الفاسقين . وما أفاء الله على رسوله منهم فما اوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير . ما افاء الله على رسوله من اهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب . ٢ ـ ٧

(١) ابن هشام ج٢ ص ٤٢٨ ـ ٤٣٠ وابن سعد ج ٣ ص ٧٠ ـ ٧٢ .

(٢) غرسة النخل الصغيرة .

٢ – ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون . لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون . لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون . كمثل الذين من قبلهم قريباً ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم . كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين. فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين .

١١ – ١٧

والمجموعة الأولى جاءت في صدد تذكير المسلمين بنعمة الله عليهم ونصره ورسوله في هذه الوقعة دون اشتراك عملي حربي منهم . وجعل ذلك مبرر التشريع أيلولة ما عاد منها من الغنائم فيئاً على المصارف المذكورة دون الأغنياء لا على أساس قسمة الغنائم على المسلمين الذين يشتركون في الحرب سواء أكانوا أغنياء أم فقراء كما هو المعتاد . ومع ذلك ففيها بعض الصور عن الوقعة إذ يستفاد منها :

١ – أنه كان لبني النضير حصون قوية لم يكن المسلمون يأملون بالتغلب عليها كما كان اليهود يحسبون أنها ما نعتهم .

٢ – إن اليهود قد وقع في قلوبهم خوف شديد ويأس بحيث استسلموا من جهة وخربوا بيوتهم بأيديهم مشتركين في ذلك مع أيدي المسلمين من جهة أخرى .

٣ – إن النبي صلى الله عليه وسلم قد أجلاهم ووضع يده على مزارعهم وأملاكهم .

٤ – إنه لم يقع اشتباك حربي بينهم وبين المسلمين أي ان حصارهم كان كافياً للنصر الذي تم .

٥ – إنه كان من اليهود مواقف كيد ومشاقة مزعجة وإنها هي السبب في حصارهم وإجلائهم .

٦ – إن النبي ﷺ أمر بقطع بعض نخيلهم الجديد الغرس لارغـامهم على التسليم باذن الله وبالهامه .

أما المجموعة الثانية . فقد تضمنت صوراً لما كان من المنافقين في هذا الموقف. إذ وعدوا اليهود بالتضامن معهم تضامناً وثيقاً حتى أكدوا لهم بأنهم سيحاربون معهم إذا حوربوا وسيخرجون معهم إذا غلبوا وأخرجوا . ولكنهم كذبوا بما وعدوا .

وقد وصفت الآيات مبلغ خوف اليهود أو المنافقين أو الفريقين معاًمن المسلمين وعدم جرأتهم على مواجهتهم في الميدان . وقررت أن كل أمرهم هو القتـال من وراء الحصون والجدران . كما قررت واقع ما كانت عليه حـالتهم الداخلية والنفسية وهو عدم التضامن الصادق وشدة التنازع والتشاد في ما بينهم وتفرقهم شيعاً رغم ما يبدو مـن اتحادهم . وشبهت المنافقين بالشيطان الذي يغوي المرء بالكفر ثم لا يلبث أن يتبرأ منهم . والآيات تحكي ما كان من أمر قبل استسلام اليهود كما هو واضح . وفيها تعليل لما كان من ذلك .

والمتبادر أن الآية (١٥) قد تضمنت الإشارة إلى ما كان من التنكيل ببني قينقاع . والتنديد ببني النضير الذين لم يعتبروا بما جرى من قبل على هؤلاء حتى ذاقوا وبال أمرهم مثلهم .

والروايات الواردة التي لا خلاف جوهري بينها تكمل الصور المستخلصة من المجموعتين [١] . ويستفاد منها أن الوقعة كانت على رأس سبعة وثلاثين شهراً من الهجرة وبعد وقعة أحد بخمسة أشهر وأن سببها المباشر هو أن النبي ﷺ ذهب مع بعض اصحابه إلى محلة بني النضير التي كانت خارج المدينة ليستعين بهم على دية بعض القتلى عملا بواجب الحلف القائم فقال بعضهم لبعض هذه فرصة لا تسنح وتآمروا على اغتيال النبي ﷺ ونبأه الله بذلك إلهاماً فنجا وعاد مع أصحابه سالمين ثم أرسل اليهم في اليوم التالي إنذاراً بالجلاء على أن يأخذوا أموالهم ويقيموا وكلاء على بساتينهم و مزارعهم . وكانوا حلفاء للخزرج الذين كان عبد الله بن أبي بن سلول كبير المنافقين من زعمائهم فأرسل اليهم باسمه واسم من ينضوي اليه في

---

(١) انظر ابن هشام ج ٣ ص ١٩٠ وبعدها وابن سعد ج ٣ ص ٩٨ وبعدها

النفاق من قومه يحرضونهم على الرفض ويطمئنونهم بأنهم لن يحاربوهم مع رسول الله بل وانهم سيحاربون معهم إذا حوربوا ويخرجون معهم إذا أخرجوا فتشجعوا وعصوا إنذار النبي فسار اليهم على رأس المسلمين وحاصرهم وضيق عليهم الخناق. وأمر بقطع غراس نخل لهم إرغاماً وإرهاباً . ولم يف المنافقون بما وعدوا فاستولى عليهم الرعب واليأس ورضوا بالجلاء بشروط أشد من الأولى بسبب تمردهم وهي أخذ ما تستطيع إبلهم حمله من المنقولات دون السلاح وتسليم ما عندهم من السلاح والتنازل عن بساتينهم ومزارعهم . وكان عدد ما أخذ منهم من السلاح خمسين درعاً وخمسين بيضة وثلاثماة وأربعين سيفاً . ولم تذكر الروايات تفصيلات عما استولى عليه من بساتينهم ومزارعهم .

ومما ذكرته الروايات أنهم أظهروا التجلد فخرجوا بزينتهم بين عزف القيان ودق الدفوف والمزامير وخربوا بيوتهم وحصونهم وأخذوا ما قدروا عليه من أخشابها حتى لا ينتفع به المسلمون . وقد ذهب بعضهم إلى بلاد الشام وبعضهم إلى خيبر . ومن هؤلاء زعماؤهم سلام بن أبي الحقيق وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب . وقد دان يهود خيبر لهم فغدوا زعماء اليهود في خيبر وما بعدها من القرى اليهودية . وقد ذكر ابن سعد ان بني قريظة اعتزلوا بني النضير ولم يعينوهم . ولقد كان بنو قريظة حلفاء الأوس في حين كان بنو النضير حلفاء الخزرج حيث يبدو أن هذا التوزع كان مظهراً من مظاهر خصومة كانت بين الفريقين اليهوديين فكان موقف بني قريظة متصلا بذلك .

والروايات منسجمة مع ما احتوته الآيات من صور . وإن كان ثمة شيء يزاد فهو المدى الواسع الذي انطوى في الآية الرابعة إذ يصح أن يقال إن محاولة بني النضير اغتيال النبي ﷺ إنما كانت سبباً مباشراً وإنه كان منهم قبل ذلك مواقف مؤذية ومزعجة كثيرة عبرت عنها الآية بجملة (ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله) فامتلأ بها الكيل وحق عليهم النكال .

٥ ـ القضاء على بني قريظة

لقد أشير إلى هذا الحادث في آيات من سورة الأحزاب اتفق رواة التفسير انها في صدده وهي هذه :

« وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريـــقاً تقتلون وتأسرون فريقاً . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها وكان الله على كل شيء قديراً .

٢٦ — ٢٧

والآيتان جاءتا عقب سلسلة الآيات الواردة في صدد زحف أحزاب المشركين من قريش وغطفان وغيرهم على المدينة في السنة الخامسة . وهما صريحتان بأن بني قريظة قد ظاهروا الغزاة الزاحفين جهرة على المسلمين .

ولقد احتوت آيات الأحزاب السابقة للآيتين وصفاً للحالة الخـــطيرة التي واجهها المسلمون من زحف جيش أحزاب الكفار الجرار على المدينة . وما كان من جرأة المنافقين على تكذيب الله ورسوله وتثبيط الناس مما قد ينطوي فيه مؤامرة خفية محبوكة الأطراف بين اليهود والمنافقين وأحزاب الكفار للقضاء على الكيان الإسلامي قضاء ساحقاً كما ترى فيها :

يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلناعليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً . إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً . وإذ يقول المنـــافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً . وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً . ولو دخلت عليهم من أقطارهـــا ثم سئلوا الفتنة لأتوها وما تلبثوا بها إلا يسيراً . ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا . قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذن لا تمتعون إلا قليلا . قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً . قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم هلم الينا ولا يأتون البأس إلا قليلا . أشحة عليكم فإذا جـــاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه مـــن الموت فاذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك عـــلى الله يسيراً . يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت

الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أبنائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا . لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً . ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليما .

٩ — ٢٢

والوصف الذي انطوى في الآيات والذي يبين شدة الخطر الذي احدق بالمسلمين من جميع الأنحاء يبرر من دون ريب شدة التنكيل الذي أوقع على بني قريظة الذين كانت مظاهرتهم للغزاة من وزاء المسلمين مضاعفة للخطر مما وصفته الآيتان ٢٦ — ٢٧ ويجعله عملا لا معدى عنه ليتناسب مع شدة الخطر ويجعل غمز المغرضين بأنه كان قاسياً في غير محله .

ولقد احتوت الروايات التي لا خلاف في جوهرها [(١)] مـا يكمل الصورة القرآنية لمجرى الحادث ويتسق مع الآيات اتساقاً غير يسير . إذ يستفاد منها :

١ — إن وفداً يهودياً على رأسه زعماء بني النضير الذين أقاموا في خيبر بعد جلائهم عن المدينة ذهب إلى مكة وحرضوا زعمائها على النبي والمسلمين وتحالفوا معهم وأقسموا على ذلك عند الأصنام في فناء الكعبة وتزلفوا لهم فقـالوا لهم عندما سألوهم عن الأهدى هم أم محمد أنهم هم الأهدى . وتمسحوا بالأصنـام وسجدوا لها وهو ما تضمنت الاشارة اليه آية سورة النساء هذه :

(ألم تر إلى الذين أوتوانصيباًمن الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوتويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا) .

سورة النساء ٥١

٢ — إن الوفـد ذهب كذلك إلى قبائل غطفان وقيس وغيلان وحرضها ومناها بخيرات المدينة . وأخبرها بما تم الاتفاق عليه مع زعماء مكة وتحالف معها كذلك .

٣ — إن حيي بن اخطب الزعيم النضري جاء بعد ذلك إلى محلة بني قريظة وقال لزعيمهم كعب بن أسد لقد جئتك بعز الدهر وببحر طام . جئتك بقريش

---

(١) انظر ابن هشام ج ٣ ص ٢٢٩ وبعدها وابن سعد ج ٣ ص ١٠٨ — ١٢٠

على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من دومة . وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نقمي إلى جانب أحد . وقد عاهدوني وعاقدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه . وأظهر كعب تردداً وتخوفاً فظل حيي يلح عليه حتى وافقه على نقض ما كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم من عهد .

٤ – إن النبي ﷺ لما بلغه الخبر وكانت جيوش الأحزاب قد أقبلت أرسل زعيمي الأوس والخزرج سعداً بن معاذ وسعداً بن عبادة رضي الله عنهما إلى محلتهم وكانت وراء بيوت اهل المدينة لينظرا أحق ما بلغه عنهم . وطلب منهما أن لا يجهرا به إن كان حقاً لئلا يفت في أعضاد الناس . وإنهما قد أتياهم فوجداهم على أخبث ما بلغهم ونالوا من رسول الله وقالوا من هو رسول الله وأنكروا العهد الذي بينهم وبينه . وأن سعداً بن معاذ حليفهم شاتمهم فشاتموه فقال له سعد ابن عبادة دع عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة .

٥ – لما انصرف الكفار عن المدينة مرتدين بغيظهم لم ينالوا خيراً على ما جاء في آية سورة الأحزاب هذه :

(ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً) .

٢٥

ورجع الناس إلى المدينة جاء جبريل عليه السلام الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له (اوضعت السلاح والملائكة لم تضعه بعد. إن الله يأمرك بالمسير إلى بني قريظة) فأمر النبي مؤذناً يؤذن في الناس (من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة) . وزحف النبي على رأس المسلمين عليهم فحاصرهم خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار . وقذف الله الرعب في قلوبهم فنزلوا على حكم النبي صلى الله عليه وسلم . وتشفع جماعة من الأوس حلفاءهم وطلبوا الاكتفاء بإجلائهم كما فعل بمن سبقهم استجابة لشفاعة حلفائهم الخزرج . فجعل النبي الحكم في امرهم لزعيم الأوس سعد بن معاذ . وكان قد اصابه سهم فجعله النبي في خيمة اقامها في المسجد لمداواة الجرحى ووكل بعلاجه امرأة من اسلم اسمها رفيدة فأرسل اليه فأحضروه راكباً على حمار وجعل اصحابه الذين جاؤوا ليصحبوه

يطلبون منه الرفق بحلفائهم فقال لهم (ان لسعد ان لا تأخذه في الله لومة لائم) ثم حكم بقتل الرجال وسبي النساء والأطفال وقسمة الأموال . فهتف النبي صلوات الله عليه قائلا (لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة ارقعة « اي سموات ») .

ولقد روى ابن هشام ان سعداً رضي الله عنه حينما اصابه السهم دعا الله قائلا اللهم لا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة . حيث يبدو انه كان شديد التأثر والنقمة عليهم من موقفهم الغادر .

وقد عرض النبي صلى الله عليه وسلم الاسلام على رجال بني قريظة قبل ان يأمر بقتلهم . فلم يستجب إلا افراد قلائل . وكان عدد الذين قتلوا منهم ٧٠٠ ولم يقتل من لم ينبت له شارب واعتبرهم اطفالا وسباهم مع السبي . وكان عدد النساء والاطفال المسبيين ايضاً نحو ٧٠٠ فأرسلهم النبي إلى العراق حيث بيعوا . وكان عدد السلاح المستولى عليه منهم ١٥٠٠ سيفاً و ١٥٠٠ ترساً وجحفة و٣٠٠ درعاً . وليس في الروايات بيانات مما اورثه الله المسلمين من اموالهم وديارهم واراضيهم .

وتفيد عبارة الآية (٢٧) من سورة الأحزاب انه كان لهم مزارع بعيدة نوعاً ماعن الضاحية التي كانوا يقطنونها فاستولى المسلمون عليها بالاضافة إلى مااستولوا عليه من ارض ومال واملاك في الضاحية .

وليس في الروايات شيء عن موقف عدواني عملي لبني قريظة غير ما كان من إعلانهم النقض وشتمهم لرسول الله وإنكارهم العهد معه حينما جاء اليهم الزعيمان الأوسي والخزرجي .

غير ان عبارة « ظاهروهم » في الآية ٢٦ من سورة الأحزاب تلهم انه بدا من اليهود اثناء إحداق الأحزاب بالمدينة اعمال مؤذية للمسلمين او تمت الى الحرب تضرر المسلمون منها وأثارت في نفوسهم السخط فوق ما اثاره موقف الغدر والخيانة فيهم من خوف وزادت الخطر شدة . وليس من ريب في أن التنكيل الشديد يمت بسبب وثيق الى هذه الظروف كلها ولا سيما إن هذا كان منهم دون ان يعتبروا بما كان من اجلاء بني قينقاع وبني النضير اولا وكان الموقف العصيب نتيجة سعي يهودي في ايقاد نار الحرب بقصد القضاء المبرم على المسلمين ثانياً . فلا

غرو ان كان عقابهم اشد صراحة من عقاب من سبقهم لأن الموقف كان اشد اثراً وابعد مدى في النكاية والخطورة .

تعقيب

وبالتنكيل ببني قريظة تم القضاء على يهود المدينة الذين كانوا هم الأشد والاقوى والاغنى والابعد نكاية واذى وكيداً . ولم يبق في المدينة من اليهود الا افراد قلائل كانوا مسالمين ولعلهم كانوا عرباً متهودين فتركت لهم حرية الاقامة والدين . ولقد كان هذا فاتحة عهد جديد للاسلام والدعوة الاسلامية . فالمنافقون الذين فقدوا محركهم القوي ومدبرهم الألمعي او بالتعبير القرآني (شياطينهم) لم يلبثوا ان اخذ شأنهم يضؤل . وصوتهم يخفت . وقوتهم تهن . وكثرتهم تتناقص . وانكشف عن المسلمين غم شديد كان يستنفد منهم كثيراً من الجهود . ويقض المضاجع . والمشركون الذين غزوا المدينة تلك الغزوة العظمى التي زلزلت جمهور المسلمين والتي انضوى اليها نحو عشرة آلاف بتحريكهم وتآمرهم لم يعودوا يفكرون بغزو المدينة وقتال المسلمين . حتى ان هذا قد شجع النبي (صلعم) فاعتزم زيارة الكعبة العام التالي بالهام الله ونتج عن الرحلة ان اعترف زعماء قريش به نداً وعقدوا معه صلحاً هو صلح الحديبية . والقبائل الكثيرة التي كانت تقف موقف المتربص تبدل موقفها واخذت تتقرب الى النبي (ﷺ) بالتعاهد والمسالمة او الدخول في الاسلام . وفرغ بال النبي فأرسل رسله وكتبه بالدعوة الى الاسلام الى الملوك والامراء والاقيال في داخل الجزيرة وخارجها من عرب وغير عرب . ولم يمر ثلاث سنوات حتى استطاع ان يجمع جيشاً قوامه عشرة آلاف ويغزو به مكة ويفتحها فيهدم السور الكثيف الذي كانت مكة تقيمه بين الاسلام وسائر العرب . ويفد عشرات الوفود الى المدينة من مختلف انحاء الجزيرة ويدخل الناس في دين الله افواجاً .

ويهود المدينة وان كانوا هم الاكثر والاقوى . وكان القضاء عليهم قضاء على القوة اليهودية الكبرى فانه كان هناك جاليات عديدة من اليهود الاسرائيليين تسكن قرى عديدة مما يلي الشام . وقد اهملها النبي صلى الله عليه وسلم مدة ما على ما كان من نيات السوء التي كانت تضمرها والموقف الجاحد المتآمر المتربص

الذي كانت تقفه لأنها لم تكن من قوة الشأن ما تثير خوفاً وخطراً عاجلين بعد سحق رأس الأفعى في المدينة . ولكنه لم يكد يعقد صلح الحديبية مع قريش في في السنة التالية للقضاء على بني قريظة حتى بادر إلى تصفية أمرها وخضدشوكتها وهذا ما سوف نفصله في الحلقات التالية .

١ ـ قتل ابي رافع سلام بن ابي الحقيق النضري في خيبر

ليس لهذا الحادث إشارة ما في القرآن . غير أن الروايات الوثيقة قد ذكرته بدون خلاف [١] . ومما ذكرته هذه الروايات أن أبا رافع هذا كان من الوفد الذي ذهب إلى مكة وغطفان وحزب الأحزاب على النبي والمسلمين ثم استمر في تحريض غطفان ومن حول خيبر من مشركي العرب على حرب رسول الله وبعدهم بالجعل العظيم . فأرسل النبي بضعة أشخاص لقتله على رأسهم عبد الله بن عتيك الأنصاري الذي كان يرطن باليهودية . فلما وصلوا خيبر ذهبوا إلى بيته وطرقوا الباب وقال عبد الله باليهودية لقد جئنا بهدية إلى أبي رافع ففتحت زوجته لهم الباب فلما استرابت فيهم هددوها بالقتل فسكتت ثم عمدوا إلى المخدع وطعنوا اليهودي بأسيافهم حتى قضوا عليه وعادوا فأخبروا رسول الله الذي سر وهتف لهم (أفلحت الوجوه) .

٢ ـ قتل اسير بن رازم وجماعة معه

وهذا الحادث مما ذكرته الروايات الوثيقة التي لا خلاف فيها [٢] والمستفاد منها أن يهود خيبر أمروا عليهم هذا الزعيم بعد مقتل أبي رافع . سلام بن أبي الحقيق . فأخذ يبذل جهوده في تحريض غطفان وغيرهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجه النبي عبد الله بن رواحة في ثلاثة نفر اليه للاستطلاع . ثم سير سرية من ثلاثين على رأسهم عبد الله . وأذن لهم أن يستعملوا الخداع معه إذا مست الحاجة . فذهبوا اليه وقالوا له ان رسول الله بعثهم اليه لاستدعائه حتى يتفاهم معه ويستعمله على خيبر . فانخدع وخرج معهم في ثلاثين من اليهود ـ

---

(١) ابن سعد ج٣ ص١٣٤-١٣٥ وابن هشام ج ٣ ص ٣١٣-٣١٥

(٢) ابن سعد ج ٣ ص ١٣٥-١٣٦

وفي الطريق ندم على خروجه وهم بقتل المسلم الذي كان قربه ولكنه نجا منه ثم بادره بضربة كانت القاضية عليه ثم مال المسلمون على جماعته فقتلوهم عدا واحداً استطاع الإفلات .

٣ ـ فتح خيبر والقرى اليهودية الاخرى

وهذا مما ذكرته الروايات الوثيقة التي لا خلاف فيها أيضاً . ويستفاد منها[١] أن النبي سار إلى خيبر بعد صلح الحديبية بنحو شهرين في رواية وخمسة أشهر في رواية أخرى . وانه كان فيها حصون قوية وكثيرة ومحاربون أشداء وأن النضال معهم استغرق شهراً ونيفاً وقد أبدوا مقاومة عنيفة وكان بعض الجهود والمشقة على المسلمين ثم فتح الله عليهم واستولوا نتيجة لذلك على جميع أموالهم ومزارعهم. وان النبي أبقى من قبل من اليهود أن يتولى رعاية البساتين على نصف الغلة ماسمح الله ببقائهم والعبارة التي ذكرها ابن هشام في ذلك (أقركم ما أقركم الله) وأجلى سائرهم . ومما حدث بعد أن تم الفتح والتفاهم ان امرأة سلام بن مشكم أحد زعماء اليهود أهدت إلى النبي (ﷺ) شاة مشوية دست فيها السم فلاك شيئاً منها فاستكرهها وقال إن هذه الشاة لتخبرني انها مسمومة واستدعى المرأة فاعترفت وقالت بلغت من قومي ما لم يخف عليك نقلت إن كان ملكاً استرحنا منه وإن كان نبياً فسيخبر . ولقد مات من الشاة المسمومة أحد أصحاب رسول الله بشر ابن البراء . ولقد ظل النبي متأثراً بما لاكه منها حتى إنه قال في مرضه الذي توفي فيه لأخت بشر إن هذا الأوان وجدت فيه انقطاع أبهري من الأكلة التي أكلت مع أخيك . وكان أصحاب رسول الله يرون أن رسول الله قد مات شهيداً بسبب ذلك .

وهكذا ظل الكيد والبغي اليهودي يعمل في مختلف الميادين إلى أن كان سبباً في موت النبي صلى الله عليه وسلم . ومع ذلك فقد روت الروايات ان النبي تجاوز عن اليهودية التي أهدته الشاة المسمومة .

---

(١) تفصيل غزوة خيبر وما وراءها في ابن سعد ج ٣ ص ١٥٢-١٦٢ وابن هشام ج ٣ ص ٣٧٨ - ٤٢٣ وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٩٨ وما بعدها .

ولقد انصرف النبي بعد خيبر إلى وادي القرى . وكان فيها كذلك عــدة حصون . وقاوم يهودها بعض المقاومة . غير أن أمرهم صار إلى ما صار اليه أمر خيبر . وانه قد دب الرعب في قلوب يهود فدك وتيماء فأرسلوا رسلهم إلى النبي (ﷺ) يصالحونه على نصف املاكهم ويعاهدونة على المسالمة فقبل منهم .

ولقد ورد في سورة الفتح آيات ذكر المفسرون أنها في صدد هذه الفتوحات وهي هذه :

١ — سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا ..

١٥

١ — لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً . ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيما . وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيما . وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديراً .

١٨ — ٢١

وقالوا في سياق تفسيرها إن الله أمر نبيه بالالهام أن يسير إلى خيبر بعدصلح الحديبية وأن لايصطحب معه إلا الذين شهدوا الحديبية . وبشره بالفتح والمغانم التي وعد الله بها الذين شهدوا الحديبية عوضاً عن غنائم أهل مكة إذ انصرفوا عنهم على صلح ولم يصيبوا منهم شيئاً . وقد تمسك المغرضون مــن المبشرين والمستشرقين بهذه الأقوال وغمزوا النبي قائلين إن زحفه على خيبر لم يكن لهمبرر إلا قصد سلب أموال اليهود ومكافأة أهل الحديبية بها .

وأقوال المفسرين غير موثقة . وقد ذكرت روايات السيرة القديمة أن أناساً غير الذين شهدوا الحديبية كانوا أيضاً مع رسول الله ونالوا من الغنــائم . منهم نساء غفاريات استأذن رسول الله بالجهاد معه فأذن لهن وأعطاهن من الغنائم . ومنهم المهاجرون الأولون إلى الحبشة الذين عادوا في هذا الظرف والتحقوا بالنبي في خيبر ووفود الدوسيين والأشعريين الذين جاؤوا من اليمن في هــذا الظرف

والتحقوا بالنبي أيضاً حيث أعطاهم من الغنائم كذلك[1] .

وآيات سورة الفتح (١٥ و ١٨ – ٢١) لا تفيد ذلك ما يمكن أن تفيده أن النبي ﷺ أمر بأن لا يصطحب معه الأعراب الذين تخلفوا عنه في رحلته إلى مكة خوفاً من العواقب على ما ذكرته آيات في سورة الفتح قبل هذه الآيات وهي :

(سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيراً . بل ظننتم ان لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً . ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيراً .

١١ – ١٣

ثم بشرى ربانية مسبقة بالفتح والغنائم . وحتى لو صح أن الله قد امر النبي بأن لا يصطحب معه إلا الذين شهدوا الحديبية فليس في ذلك مسوغ للاستنباط بأن الله اراد ان يعوض عليهم ما ضاع عليهم من غنائم ، لأنه لم يكن احتمال لغنائم من رحلة مكة لو تمت لأنها إنما كانت للحج او الزيارة .

وكل ما يفيده ذلك ان حكمة الله ورسوله اقتضت انلا يصطحب الا الذين ثبت إخلاصهم وتفانيهم واستعدادهم للتضحية والجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل دين الله ورسوله .

ولقد كان رؤساء الوفد اليهودي الذي ذهب إلى مكة والقبائل وتحالف معها وحزب الأحزاب وساقها إلى المدينة وحمل بني قريظة على نقض عهدهم مع رسول الله على ما شرحناه قبل هم زعماء يهود خيبر من بني النضير . ولم يرتدع هؤلاء بعد التنكيل الشديد الذي وقع على بني قريظة بل ظلوا يحرضون غطفان وغيرهم من مشركي العرب على النبي والمسلمين وغزو المدينة مما جعل النبي (ﷺ) يسير من اغتيال الزعيمين اللذين تعاقبا الزعامة في خيبر على ما شرحناه قبل

---

(١) انظر المصادر السابقة الذكر وتفسير سورة الفتح في تفسير الطبري والبغوي وابن كثير والخازن والطبرسي والزمخشري .

قليل كذلك .

ففي كل هذا المبرر القوي الكافي للزحف لأن خيبر وما وراءها من قرى اليهود صارت مقر تآمر ومصدر إزعاج ضد المسلمين . وكل ما هنالك ان النبي لم ير خطراً عاجلا من تأخير التنكيل بهم بعد أن صفى يهود المدينة . فلما أبرم الصلح مع مكة رأى ان الفرصة المنشودة قد سنحت فقام بالغزوة لاتمام خضد شوكة اليهود في الحجاز وتصفيتهم وأمن جانبهم نهائياً .

ولقد بقي اليهود الذين أبقاهم النبي لرعاية البساتين بقية حياة النبي وطيلة خلافة أبي بكر وشطراً من خلافة عمر بن الخطاب . ثم اخذوا يعيثون في المسلمين ويغشوهم وعدوا على ابن لعمر فألقوه من فوق بيت وفدعوا يديه فقال عمر إنا صالحناهم على ان نخرجهم متى اردنا وقد بلغني ان رسول الله قال في مرضه (لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان) ثم ارسل اليهم ان الله قد اذن في جلائكم فتجهزوا للجلاء [1] . وهكذا تم تطهير الأرض المقدسة منهم .

---

(١) ابن هشام ج ٣ ص ٤١١

كلمة الختام

وبعد فقد ابتلى العرب والمسلمون في هذا العصر باليهود في بلادهم . ومع انهم عاملوهم في ظل السلطان الذي مارسوه امداً طويلا في مشارق الأرض ومغاربها أحسن معاملة . وآووهم وحموهم . ومنحوهم الحرية في دينهم ومعابدهم وطقوسهم وتجارتهم ومعايشهم بل وصافوهم وتواثقوا معهم وحفظوا لهم العهود شأن ما كان من النبي (ﷺ) والمسلمين نحو اسلافهم في الحجاز في حين أنهم أوذوا أشد الأذى وحرموا اشد الحرمان وسيموا اشد الخسف في البلاد الاخرى وقد قابلوا العرب والمسلمين بالكفر والجحود والشر والمكر والكيد والبغي كما فعل اسلافهم من قبل استمراراً في تلك الجبلة الخلقية الفاسدة والنحيزة الشريرة الآثمة .

وكان منهم ما كان في فلسطين من مواقف غادرة باغية لم يرعوا فيها حقاً ولا ذمة ولا شرفاً ولا مروءة ولا إنسانية مما لا تزال ماثلة للعيان ترتعد لها الفرائص وتقشعر لهولها الجلود وما يزالون مستمرين على هذه المواقف . وبدا منهم ما بدا من المطامع الرهيبة والنيات الخبيثة نحو جميع العرب وبلادهم . وساندهم في مواقفهم اخوانهم في جميع البلاد الاخرى . وألبوا على العرب جمهرة الدول بمختلف وسائل التضليل والإغراء والمكر والدهاء والدعاية فصدق تقرير القرآن في وصفهم بأنهم اشد الناس عداوة للمسلمين . ولقد كان عدم مقابلة العرب لهم بما استطاعوا من قوة . وما بدا من تقصيرهم وعدم تضامنهم في مجاهدتهم سبباً قوياً من اسباب تمكن اليهود من فلسطين وما شجعهم على بغيهم وصار امرهم اليه من قوة . وان في الاستمرار في ذلك خطراً ليس اشد خطراً منه على بلاد العرب والاسلام وانه لمن اوجب الواجبات عليهم ان يجدوا في

الامر وان لا يهـــدأ لهم بال حتى يقضوا على جرثومة الشر قضاء مبرماً كما قضى عليها نبيهم وخلفاؤهم الراشدون ويطهروا بلادهم منها كما طهروها . وان يعدوا من اجل ذلك كل ما استطاعوا من قوة تنفيذاً لأمر القرآن . وإنهم لفاعلون إن شاء الله وقادرون عليه إذا جدوا وصدقوا . ولا يغرنهم ما يلقاه اليهود الآن من تأييد الطامعين الظالمين وعونهم . فان ذلك لن يدوم . وقد وعد الله عباده المؤمنين المخلصين بالنصر المبين إذا صدقوا الجهاد وكتب على اعدائهم اليهود الذلة والمسكنة والغضب كل مــــا اوقدوا ناراً للحرب أطفأهـــــا الله ولن يخلف الله وعده [1] .

---

(١) هذه هي خاتمـــة الطبعة الاولى لرسالة القرآن واليهود أبقيناها كما هي مجددين الهتاف بالعرب والمسلمين إلى الجهاد في سبيل تطهير ارضهم المقدسة من رجس اليهود وإعادة السلطان العربي الاسلامي عليها معتقدين بأن الله سوف ينصرهم اذا تضامنوا واستجابوا إلى هذا الهتاف واعدوا لعدوهم ما استطاعوا من قوة .

استدراكات لا بد منها

ولقد رأينا ضرورة الى ايراد بعض استدراكات لا بد منها بسبيل الايضاح والتوعية والتحذير .

أولا : ان بعض العرب ينظرون بشيء من الازورار إلى العبرانيين وبني إسرائيل في سلك الجنس العربي بسبب ما قام بين العرب واليهود في التاريخ الحديث من عداء وصدام ناتجين عن عدوان اليهود على فلسطين واهلها بمساندة الاستعماريين البغاة . غير ان هذه النظرة في غير محلها . فالعبرانيون وبنو إسرائيل المتفرعون عنهم هم من الارومات العربية الجنس سواء أكانوا قبيلا خاصاً هو الذي عرف باسم الخابيرو او العابيرو ام من الأموريين او الآراميين او الكلدانيين على ما يجمع عليه الباحثون مع فارق واحد هو انهم يسمون هذه الأقوام مع الجنس العربي بالساميين في حين نسميها نحن بالجنس العربي . ومن واجب المؤرخ ان يذكر ما يثبت له من حقائق بدون النظر الى اي اعتبار .وهو ما جعلنا نسلكهم في كتابنا تاريخ الجنس العربي في سلك هذا الجنس .

ومن الحق ان ننبه في هذه المناسبة على انه لا يعقل ان يكون الجنس العربي شاذاً عن البشر ليكون كله صالحاً . ففيه الصالح والطالح وفيه العادل والظالم وفيه المستقيم والمنحرف . ومنه انبياء الله ومنه العريقون في الكفر والاجرام . مما هو بديهي لا يحتمل مراء مع القول ان القبيل الاسرائيلي قد جاء شاذاً حيث كان في مختلف سيرته المعروفة منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد من اسوأ ما يكون قسوة وظلماً وعدواناً وحقداً وشرهاً وانحرافاً إلا قليلا جداً على ما يبدو من خلال تاريخهم نتيجة لعقدهم النفسية التي انفردوا بها والتي نبهنا عليها والتي جعلتهم يشعرون بالانفصال والانقطاع والتعالي عن غيرهم ولا يندمجون معهم .

ويحيكون لهم الدسائس ويبيتون لهم المطامع . ويشرهون الى ما في ايديهم . ويستحلون أموالهم ودماءهم بغـيا وعدوانا ويبدون تورع ولا حرج ولا سابق استفزاز وعداء حق صاروا أسوأ قبيل بشري وحتى لم تر الأمم التي بليت بهم في القديم والحديث علاجاً لهم إلا التنكيل بهم حتى الإبادة أو الإجلاء كما فعل المصريرن القدماء ثم الأشوريون ثم البابليون ثم اليونان ثم الرومان وكما أراد أن يفعله فيهم الفرس في السبي . وكما كان شأنهم في الحجاز وإبان البعثة النبوية على ما مر شرحه في ثنايا الكتابين الذين يضمها هذا المجلد وكما كان شأنهم في أوروبا في القرون الثلاثة الأخيرة وموقف الألمان الحاكم القاصم منهم في الحرب العالمية الثانية .

وثانـيا : يزعم الصهيونيون وهم الذين يقومون بالحركة اليهودية السياسية الحديثة المسماة بالصهيونية — نسبة إلى صهيون . وهو اسم قديم لهضبة في القدس كان أقام عليها داود قصره حينما صار له الملك واتخذ القدس — أورشليم — عاصمة له — أن اليهود المعاصرين يمتون بنسب وثيق من الدم إلى بني إسرائيل القدماء . ويربطون حركتهم بتاريخ هؤلاء في فلسطين ويجعلونه سنداً ومبرراً لما يهدفون اليه من إقامة دولة لهم في فلسطين وما جاورها . وهي دعوى لا تستند إلى أي أساس من منطق وتاريخ صادق .

فبالإضافة إلى أن دعوى حق اليهود بالعودة إلى فلسطين وإنشاء سلطان لهم فيها وفيما جاورها لأن بني إسرائيل عاشوا فيها زمناً ما قبل الفي سنة باطـلة ومضحكة . وبالإضافة كذلك إلى أن بني إسرائيل قـد طرأوا على فلسطين طروءاً وهي غاصة بالسكان ولم يكن لهم فيها أي مجد ومفخرة على ما تقـدم شرحه في القسم الأول مـن الكتاب فإن دعوى اليهود المعاصرين بصلتهم ببني إسرائيل القدماء هي زائفة أيضاً لان معظم الفئة القليلة التي بقيت في فلسطين بعد ضربات الرومان القاصمة في القرنين الاول والثاني بعد الميلاد مـن بني اسرائيل اعتنقوا المسيحية ثم الإسلام واندمجوا في العروبة الصريحة مثل معظم غيرهم من السكان القدماء . ومعظم الذين تشردوا في أنحاء الشام ومصر وشمال افريقية ونجوا من القتل واعتنقوا الإسلام واندمجوا في العروبة الصريحة كذلك . والذين حافظوا على يهوديتهم عاشوا بين الأقوام الاخرى في آسية واوروبـا وافريقيا فاختلطت دماؤهم بدماء هذه الاقوام . وهذا فضلا عن أنه من الثابت أن كتلا كبيرة من أصل آري في آسيا وأوروبا اتخذت اليهودية ديناً . منهم من

فعل ذلك قبل الميلاد ومنهم من فعله بعده [١] . بحيث يصح أن يقال إن معظم اليهود اليوم من أنسال هذه الكتل . وان الدم الإسرائيلي الذي كان في الجدود الأولين قد باد أو كاد أن يبيد . وان قصارى ما في الأمر أن الدين اليهودي هو الطابع المخصص للكتل التي تدين بهذا الدين والتي تمت إلى مختلف الأجناس والدماء والألوان والقارات والدول .

وإن أسفار العهد القديم التي ظل اليهود يتداولونها ويتدارسونها مع التلمود ويعتبرونها كتبهم ومراجعهم الدينية والتشريعية والطقسية والتاريخية ظلت تؤثر فيهم وتطبعهم بطابع الجبلة الشاذة التي تميز بها بنو اسرائيل القدماء . وليس من شأن هذا أن يسبغ عليهم صفة قومية متميزة تتصف بها حركتهم الجديدة أو يخرج هذه الحركة عن صفة كونهم جماعات دينية وحسب . ومحاولة إحياء اللغة العبرانية القديمة التي حفظتها الكتب والأسفار الدينية وظلت في نطاقها وحسب هي عملية اصطناعية ومتصلة بفكرة النزوع إلى إحياء قومية زائفة لها لغة خاصة مما أوحت به حالة اليهود الاجتماعية والسياسية . حيث رأى بعض رجالهم في أواخر القرن التاسع عشر ان لا خلاص لبني دينهم من تلك الحالة التي كان من مظاهرها انتشار الكراهية والبغضاء ضد اليهود في كل قطر وجدوا فيه

---

(١) ان الشعوب التي أرسلها أسرحدون إلى فلسطين وأسكنها بلاد السامرة بعد نسف مملكة إسرائيل اعتنقت الموسوية . وكثيراً من اهل العراق اندمجوا مع بني إسرائيل في أيام السبي واعتنقوا اليهودية على ما ذكرته أسفار العهد القديم وأوردناه قبل . وقد ذكرت الموسوعة اليهودية في مجلدها السادس خبر اعتناق قبائل الخزر الارية للدين اليهودي وانتشارها بعد ذلك في أنحاء روسية ومنها إلى اوروبا الوسطى في مختلف الظروف . وهؤلاء هم طوائف اليهود المساة بالشكناز والتي تؤلف أكثرية اليهود . ولا شك في أن اعتناق اليهودية من قبل جماعات آرية الجنس ليس قاصراً على الخزر . وكل ما في الأمر أن الخزر أكبر الكتل اليهودية . ولقد أورد البلاذري في كتابه في فتوح البلدان (ص ٢٠٨) نص كتاب أمان كتبه القائد العربي حبيب بن مسلمة لأهل مدينة واسيل في بلاد ارمينية والخزر جاء فيه (انه اعطى الأمان لنصاراهم ومجوسهم ويهودهم) اي انه كان في مناطق ارمينية والخزر يهود في أوائل القرن الهجري الأول ـ القرن الميلادي السابع ـ ممتداً إلى ما قبل ذلك . والمتبادر ان لا يكون ذلك في مدينة واحدة فقط .

وبخاصة في أوروبا نتيجة لانقطاعهم عن مجتمعهم وسوء نواياهم في مختلف الاساليب نحو هذا المجتمع نتيجة لانطباعهم بطابع الجبلة الشاذة كما أسلفنا قبل قليل إلا بايجاد مكان يجتمعون فيه ويحيون كأمة فتفتقت في ذهنهم فكرة الذهـــاب إلى فلسطين وإحياء اللغة العبرانية . لأنهم رأوا في تاريخ اليهود القديم ما يمكن أن يكون سنداً لفكرتهم . وباعثاً على اعتناقها مـــن قبل اليهود فكانت الحركة الصهيونية التي اقتبس اسمها مـــن اسم احد تلال مدينة القدس اورشليم عاصمة مملكة داود وسليمان ويهوذا ومكان المعبد اليهودي البائد والتي ترمي إلى حشد اليهود في فلسطين وإقامة دولة وكيان قومي فيها بقوة الدافع الديني والذكريات التاريخية مهما كان ذلك بعيداً عن الحقائق ومناقضاً للعـــلم والتاريخ والمنطق السليم .

وبقاء اليهود في كل مكان وجـــدوا فيه كتلا منطوية على نفسها في مساكنها ومعايشها وأخلاقها وعاداتها معرضة للاحقاد والاضطهاد والاحتقار وخاصة في القرن السابع وما قبله ليس من شأنه ان يعضد صفة القومية المتميزة فيهم ويصل بينهم وبين بني إسرائيل القدماء الذين يريد الصهيونيون نسبة اليهود المعاصرين اليهم . وإنما هو متصل بوجودهم بين الكثرة الدينية الأخرى التي يقوم العـــداء الديني والاجتماعي والاقتصادي بينها وبينهم . ونتيجة من نتائجه . ومظهر من مظاهر حياة الأقلية الدينية والمذهبية وما تفرضه هذه الحياة وامتدادها في القرون الوسطى وبخاصة بالنسبة لليهود الذين تميزوا بجبلة خلقية وسلوكية خاصة إزاء الأمم والنحل الأخرى .

واستمرار استعمال اللغة العبرانية لا يسند تلك الصفة . لأنهـــا كانت لغة الأسفار والطقوس الدينية . وكان هذا الاستعمال إلى أمـــد قريب منحصراً في رجال الدين اليهودي فقط الذين كانوا يتعلمونها من أجل ذلك . أمـــا الجمهور اليهودي في مختلف انحاء الأرض فقد كان وما زال لايتكلم بها. حتى الجمهور الذي حشد في فلسطين ممن تجاوزت آسنانه سن الشباب . ومحاولة السلطات اليهودية في فلسطين تنشئة الاجيال الجديدة عليها وجعلها اللغة الرسمية هي مظهر من مظاهر الحركة الصهيونية الحديثة وعملية صناعية مثلها .

وتطلع اليهود إلى فلسطين عبر القرون الطويلة وهو مما يسوقه الصهيونيون

كدليل أو سند لحركتهم وتعلقهم بفلسطين لا يعضد كذلك تلك الصفة لأنه لم يكن في وقت ما إلا تطلعاً دينياً اثاره في اجـــيالهم المتعاقبة تداول وتدارس الأسفار والذكريات الدينية والتاريخية .

على أن الهدف الصهيوني لم يتحقق في معناه ومداه القومي والديني والتاريخي المزعوم برغم ما بذله الصهيونيون من جهود جبارة ودعايات قوية . وحبكوه من مؤامرات واسعة . وحتى برغم ما وصلوا اليه من نتائج ايجابية قد تبدو عظيمة فيما تم من حشد عدد كبير من اليهود في القسم الذي ساعدهم طواغيت الاستعمار وتقصير العرب وخيانة بعضهم على اغتصابه من فلسطين . وفيما أنشأوه مـــن منشآت . وحصلوا عليه من اعترافات دولية بكيانهم . فاليهود الذين حشدوا الى الآن في فلسطين لا يزيدون إلى الآن (سنة ١٩٦٦) عن ١٥٪ من مجموع يهود العالم . وتسعون بالمئة مـــن المحشودين لم يأتوا بدافع صهيوني قومي وديني وتاريخي وبكلمة ثانية بدافع عاطفي وهو المفروض بالحركة الصهيونية وإنما أتوا بالدرجة الاولى بدافع الفقر والبطالة والخوف من الاضطهاد والإغراء بالحيـــاة الآمنة الرضية . ولم يأت من اليهود من هم في حالة مادية حسنة وأمن ممن يعيشون في أوروبا الغربية والأميركتين إلا القليل جداً برغم ما يتظاهرون به من حماس للصهيونية ورغم ما بذل من جهود ودعايات وإغراآت وخداع . لأن ذلك الهدف غير متسق مع طبائع الأشياء وراهن الوقائع في شيء . ولم يبق في الأرض جماعات كبيرة من اليهود تحفزها حالتها إلى الهجرة إلى فلسطين . ففي الاميركتين نحو ستة ملايـــين . وفي اوروبا الغربية نحو مليون ونصف . وجميع هؤلاء في حالة يسر وأمن اجتماعي ولن يجازفوا بها . لأنه ليس في فلسطين عوض عنها قط . وهؤلاء هم ٦٠٪ من يهود العالم تقريباً . و١٥٪ منهم في فلسطين . و ٢٥٪ منهم في الاتحاد السوفياتي والبلاد الشيوعية الاخرى التي تدل الدلائل على أن إمكانيات هجرتهم غير قوية او غير واسعة .

وفي هذا دلائل على أن الحركة الصهيونية في حالة جمود او تراجع من ناحية هدفها القومي والديني والتاريخي . وقد بدأ الانحسار فيها بما هو معروف من

تضاؤل عدد المهاجرين إلى الارض المحتلة سنة بعد سنة ومن نزوح الآلاف عنها سنة بعد سنة كذلك . ولو تيسرت أسباب النزوح سياسياً واقتصادياً – لأن السلطات تتشدد كثيراً بالاذن به ولأن الراغبين فيه لا يحصلون على ما يساعدهم عليه – لتضاعف عدد النازحين أضعافاً كثيرة . وإمكانيات الارض المحتلة أضعف من أن تحتمل عدداً أكبر من الموجود حتى لو صار ذلك ممكناً . وما يبشر به اليهودية من الإمكانيات التي سوف تتيحها عمليات ارواء النقب دعاية فارغة من مضمون صحيح . فالماء الذي يسرقونه من بحيرة طبريا والذي تبذل الحكومات العربية جهدها لقطعه عنهم وليس من المستبعد ان ينجحوا فيه لا يروي اكثر من (٧٠٠٠٠٠) دونم ولو تضاعف بتحلية ماء البحر لكان كل الامر أن تتضاعف هذه المساحة . وهذا أقصى ما يمكن . ومليون ونصف دونم لا تتسع لأكثر من خمسين الف أسرة إذ وزع على كل أسرة (٣٠) دونماً أي سبعة فدادين . وهذه الاسر لن يزيد عدد أفرادها عن (٢٠٠٠٠٠) . يضاف إلى هذا الضائقة الشديدة التي تخنق إسرائيل حكومياً وشعباً بسبب ضعف مواردها الذاتية وضعف فرص العمل فيها واضطرار الحكومة إلى إنفاق نصف إيرادها على الاقل للتسلح والدفاع وقبضة المقاطعة العربيه التي تشتد على خناقها يوماً بعد يوم والتي استطاعت أن تجبر اكثر من تسعة آلاف شركة اجنبية على نفض يدها منها حتى لا ينسد في وجهها باب السوق العربية الواسع واشتداد ملاحقة الحكومات العربية لها في افريقية التي حاولت أن تجعلها مجالا حيوياً لها مما يبشر بسد هذا الباب عليها او تضييقه كثيراً . وقد اخذ يخف تدفق الاموال التي استطاعت بها أن تقوم بما قامت به من منشآت واعمال وجلب مهاجرين وتأمين إسكانهم ومعيشتهم .

وهناك إلى هذا كله التمييز العنصري الذي يعاني منه اليهود انفسهم من حيث ان ما يسمى باليهود الشرقيين الذين هم نصف اليهود أو أكثر في مركز أدنى في كل شيء عن المركز الذي يشغله ما يسمى باليهود الغربيين . وهذا ينذر بالانفجار في كل وقت على ما تدل عليه البوادر .

وإذا كانت الحركة الصهيونية مع ذلك مستمرة على نشاطها فإن مرد ذلك إلى أنه ما يزال يوجد بضع مئات آلاف من اليهود يمكن أن يغروا بالهجرة إلى الأرض المحتلة من جهة وإلى كون هذه الحركة قد غدت منظمة موظفين تضم عشرات الألوف من المتفرغين الذين يرتزقون منها في فلسطين وسائر أنحاء العالم ثم إلى الدول الاستعمارية التي رأت وما تزال ترى في هذه الحركة وسيلة إلى تحقيق مآربها في الشرق العربي فتغدق عليها المساعدات وتؤيدها بمختلف الوسائل والمواقف. وحياة الدولة اليهودية منوطة بالدرجة الأولى بهذه المساعدات والتأييدات. ولن يدوم هذا إلى الأبد. وحينما ينقطع تجف هذه الحياة. وسيحدث ذلك حتما في ما نعتقد عاجلا أو آجلا.

ولقد انجرح الشعب العربي الذي يكاد عدده يبلغ مأة مليون أشد جرح وأنكاه من سيرتهم في فلسطين. وتنبه لنواياهم المريبة تجاه جميع بلاده. وهم في ناحية صغيرة من أرضه كعوامه تافهة في بحر عظيم. وهو مصمم على أن لا أمن ولا نجاة له إلا باقتلاع جرثومتهم. وهم يقوون ويزدادون وعياً وتنبهاً وتصميما يوماً بعد يوم. ولن يؤثر في مجرى هذا السيل ما يقف أو يوضع في طريقه من حجارة وموانع.

واليهود في فلسطين بعد ليسوا إلا عوامة في بحر لجي عظيم يحدق بهم العرب من كل ناحية وقد زاد عددهم على مأة مليون. ومن ورائهم المسلمون وقد بلغ عددهم الستمأة مليون بل ومعهم جمهور عظيم من النصارى إن لم نقل الجمهور الأعظم. ولن يكون لهم مفر من القضاء المحتوم الذي ينهدم به ما بنوه ويتفرقوا به أشتاتاً أيدي سبأ كما كان أمرهم من قبل.

ولسوف يأتي يوم تصبح فيه الدولة اليهودية الدعية عالة على الدول التي ساعدت اليهود على الهجرة ثم على إقامة دولتهم على الارض المغتصبة من الوطن العربي والتي شرد أهلها عنها دون أن يكون لهذه الدول الفائدة التي املوها من وراء ذلك. ولسوف يثير هذا التبرم في هذه الدول التي ترى مصالحها تتعثر في بلاد العرب العظيمة الساحة والامكانيات والعدد بسببها. ولسوف يؤدي هذا الى تركها لقدرها وحينئذ تقوم قيامتها وتنتهي المسرحية.

وإذ نقول كل هذا لا نعني أن ذلك يمكن أن يتم بسهولة وسرعة من تلقاء

نفسه ولا نعني أننا نتجاهل ما للصهيونية من قوة وتأثير ونفوذ . وعلى العرب شعبهم وحكوماتهم عبء واجب عظيم لتحقيقه . باعداد ما يستطيعون من قوة وبذل ما يقدرون عليه من جهود . ونضال عنيد في مختلف الميادين بكل إيمان وتصميم وتضامن واعتبار أن القضية هي قضية وجود عربي عام لا أمان ولا ضمان له إلا باجتثاث الجرثومة الخبيثة من أرضهم المقدسة . فاذا وعوا واجبهم وقاموا به حققوا الأمل المنشود . وانهم لفاعلون إن شاء الله . ولنا في قول الله عز وجل في موقف مماثل أعظم الأمل والايمان :

« هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا انهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الابصار » .

٢ سورة الحشر

وهناك حديث رواه مسلم والترمذي عن أبي هريرة فيه إخبار نبوي عن قتال لا بد منه سوف يقع يوماً ما بين المسلمين واليهود وفيه بشرى بانتصار المسلمين فيه انتصاراً مبيناً حتى ان الاحجار والاشجار لتساعدهم فيه . وهذا نصه (قال رسول الله ﷺ لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبيء اليهودي وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر يامسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي تعال فاقتله) [١] .

ولقد أخذت تبدو بوادر البشير والنذير النبوي . فهتاف الجهاد في سبيل تطهير الارض المقدسة من رجس اليهود واقتلاع جرثومتهم يعلو ويشتد يوماً بعد يوم في بلاد العرب حتى يكاد ان يصبح هديراً . وطلائع الفدائيين أخذت تتقدم بقوة وإقدام وتوقد نار الحرب . والحكومات العربية تسير قدماً في الاستعداد لحماية حدودها وحماية حركة التحرير التي بدأها الفدائيون وتقويتها . وآلاف الفدائيين الفلسطينيين يتدربون وينظمون ويهيئون للاندماج في هذه الحركة . ويثير كل هذا في المنطقة توتراً شديداً متبادلا يتهيأ به الجو لاقتحام الميدان وبدء المعركة

---

(١) التاج الجامع لأصول أحاديث الرسول ج٥ ص ٣٠٤ و٣٠٥

الجادة إن شاء الله . وسيكون النصر للعرب لأنهم المبغى عليهم . وقد وعد الله المبغى عليه بالنصر في قوله الكريم (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير) و (ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه لينصرنه الله) وصدق الله العظيم [1] .

ثالثاً : وقد يقول قائل بعد هذا إن موضوع الكتاب وصلته باليهود اليوم تبدوان ضعيفة أو متقطعة ما دام معقوداً على تاريخ بني إسرائيل وما دام يهود اليوم ليسوا بني إسرائيل . والرد على هذا القول وارد في مطاوي هذه النبذة فيهود اليوم متدينون بدين بني اسرائيل . والأسفار المتخلفة عن بني اسرائيل هي أسفارهم التي يتلونها صبح مساء ويتخذونها نبراساً لهم . وقد طبعتهم بطابع بني إسرائيل عقيدة وخلقاً وعقلا وجبلة وفهما وهدفاً وسيرة فحذوا وما يزالون يحذون حذوهم في كل أمر حذو القذة بالقذة فيما بينهم وبالنسبة لعلاقاتهم بغيرهم فصاروا نتيجة لذلك مثلهم قبيلا شاذاً مغلقاً على نفسه عدواً لغيره متربصاً به كائداً له ماكراً به هداماً له . يرى نفسه أرفع منه . ويستحل لنفسه كل ما لهذا الغير وما في يده . ويهدف إلى تسخيره لأغراضه وأهدافه . ويعتبر نفسه وارثاً لبني إسرائيل في كل شيء وصورة طبق الأصل عنهم ويقول ما حكاه القرآن عن بني إسرائيل (ليس علينا في الأميين سبيل) و (ولا تركنوا إلا لمن تبع دينكم) مما هو ماثل للعيان الآن ومسجل في صفحات تاريخ القرون الوسطى

---

(١) لقد اقترحنا في كتابنا مشاكل العالم العربي سنة ١٩٥١ تسليح وتجهيز وتنظيم وتمويل آلاف من الفلسطينيين الذين يتحرقون اشد التحرق لأخذ ثأرهم واسترداد وطنهم ليقوموا بحرب عصابات على أن تكون الحكومات العربية من ورائهم اولا تمدهم بالمال والسلاح وتهيئهم أهمتهم وقادرة ثانياً على حماية حدودها . ورأينا في هذا الاقتراح الوسيلة المثلى لتحريك قضية فلسطين وتحريرها في النهاية من رجس اليهود . ومما يثلج الصدر ان الحكومات العربية اخذت ترى هذا كما رأيناه الوسيلة المثلى لذلك وتهيء اسبابه لأن الاوضاع الدولية لا تسمح لها بشن حرب هجومية على اليهود حتى لو قدرت عليها في حين أن الفلسطينيين هم اصحاب الحق المشروع والمعترف به في وطنهم وليسوا مقيدين بتلك الأوضاع . وهذا ما لاحظناه حين اقترحنا ذلك . والله المسئول ان يمد الحكومات المخلصة الصادقة بقوته حتى تحققه على اوسع نطاق .

والأخيرة والقرن المعاصر في كل عمل وأسلوب وسلوك لهم فيما بينهم وبالنسبة لغيرهم وفي كل بقعة من بقاع الأرض . وفيما يزعمونه من مزاعم بالنسبة لفلسطين وبلاد العرب وفيما يبيتون لها من نوايا رهيبة وفيما اقترفوه وما يزالون يقترفونه من جرائم فظيعة بحيث صار الكتاب وموضوعه نتيجة لذلك أشد ما يكون اتصالا بهم .

رابعاً : يحاول اليهود مخادعة المسلمين ببعض آيات قرآنية فيها تنويه ببني إسرائيل . وإيذان برعاية الله لهم وتفضيلهم على العالمين مثل هذه الآيات :

١ – يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين .

سورة البقرة ٤٧

٢ – ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه وجعلناه هدى لبني إسرائيل . وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون .

السجدة ٢٣ و ٢٤

٣ – ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب . هدى وذكرى لأولي الألباب .

غافر ٥٣ و ٥٤

٦ – ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين . من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين . ولقد اخترناهم على علم على العالمين . وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين .

الدخان ٣٠ – ٣٣

٧ – ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين . وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون .

الجاثية ١٦ و ١٧

وقبل كل شيء نقول ان المفسرين متفقون على أن ما ورد في هذه الآيات من تنويه وتفضيل هو موقوت بالظرف الذي منحوهما فيه وليس على التأبيد . ولقد

حكت آيات كثيرة جداً بغيهم وعدوانهم وعصيانهم وتكذيبهم للانبياء وقتلهم إياهم وتحريف كتبهم وارتكاسهم في الكفر والشرك وعبادة العجل وأكلهم السحت وعدم تناهيهم عن المنكر ومخالفتهم لشرائعهم واحتيالهم عليها ومكابرتهم في الحق . وصدهم عن سبيل الله . وسعيهم في الأرض فساداً . وخياناتهم لعهودهم واماناتهم مع الله والناس واستحلالهم أموال الغير ودمائهم وتآمرهم على الإسلام والمسلمين مع الأعداء . وأن الله عاقبهم فضرب عليهم الشتات والذلة والمسكنة وصب عليهم غضبه ولعنهم وجعل منهم القردة والخنازير وآلى على نفسه أن يبعث الله عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب. وأذن لرسوله أن ينكل بهم ويطهر الأرض المقدسة من رجسهم بحيث يكون في هذه الآيات الكثيرة إيذان رباني بنسخ تلك الآيات والغاء تلك الميزات بسبب انحرافاتهم الدينة والأخلاقية .

ومن الآيات ما يتضمن إيقاع الله عليهم العقاب بسبب ذلك قبل البعثة ومنها ما يتضمن إيقاعه العقاب عليهم بعد البعثة . والآيات المذكورة مثبوتة في سور البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأعراف والحشر والصف والجمعة . وقد أوردناها في فصول هذا القسم المختلفة [1] .

خامساً : يحاول اليهود مخادعة المسلمين وخاصة من غير العرب بما جاء في القرآن عن صلة بني إسرائيل بأرض فلسطين ليقولوا لهم إن القرآن يؤيد كون الله تعالى قد كتبها لهم إرثاً وموطناً أبدياً . وإن مناوأة العرب والمسلمين لليهود في ذلك مخالفة للقرآن وإرادة الله عز وجل . ويوردون بسبيل ذلك الآيات القرآنية التالية :

---

(١) آيات سورة البقرة ٥٩ و ٦١ و ٦٥ و ٧٤ و ٧٩ و ٨٥ و ٨٦ و ٨٧ و ٩٣ و ١٠٠ وآل عمران ٦٩ و ٧٠ و ٧١ و ٧٢ و ٧٣ و ٧٨ و ٩٨ و ٩٩ و ١١١ و ١١٢ و ١٨١ . والنساء ٤٤ و ٤٥ و ٤٦ و ٤٧ و ٤٨ و ٤٩ و ٥٠ و ٥١ و ٥٢ و ١٥٣ و ١٥٤ و ١٥٥ و ١٥٦ والمائدة ١٢ و ١٣ و ٤١ و ٤٢ و ٥٩ و ٦٠ و ٦١ و ٦٢ و ٦٣ و ٦٤ و ٧٠ و ٧١ و ٧٢ و ٧٧ و ٧٨ و ٧٩ و ٨٠ و ٨١ و ٨٢ والأعراف ١٦١ و ١٦٢ و ١٦٣ و ١٦٤ و ١٦٥ و ١٦٦ و ١٦٧ و ١٦٨ و ١٦٩ والحشر ٤ والصف ٥ والجمعة ٥ و ٦ و ٧ و ٨ .

١ — وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين .

٢٠ — ٢١ المائدة

٢ — وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون .

١٣٧ الاعراف

٣ — فأراد أن يستفزهم من الارض فأغرقنا ومن معه جميعاً وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الارض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً .

١٠٤ الإسراء

٤ — فأخرجناهم من جنات وعيون . وكنوز ومقام كريم . كذلك وأورثناها بني إسرائيل .

٥٧ — ٥٩ الشعراء

وبقطع النظر عن كون يهود اليوم هم غير بني إسرائيل القدماء وان ما جاء في الآيات لا يعنيهم لأنها لا تشمل من دان باليهودية من غير بني إسرائيل وهم معظم أو كل يهود اليوم فان الحق في هذا الامر الذي عليه جمهور المفسرين هو أن عبارة الآيات ليست على التأبيد . وانما هي خاصة بالزمن الذي وعدوا فيه بذلك ونتيجة لما كان من استجابة بني اسرائيل لكلام الله وصبرهم على ما جاء صريحاً في آية الاعراف (١٣٧) ولقد جاء بعد آيتي المائدة آيات تحكي موقف اللجاج والتمرد الذي وقفوه من امر الله ورسوله وايجاب التيهان عليهم في التيه وعدم دخول تلك الارض بسبب فسقهم كما نرى فيها (قالوا يا موسى ان فيها قوماً جبارين وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فان يخرجوا منها فانا داخلون . قال رجلان من الذين يخافون انعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين . قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون . قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال فإنها محرمة عليهم أربعين

سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين ٢٧ – ٢٩) وهكذا يكون الأمر من وجهة النظر القرآنية قد وقف عند الوعد وانتهى مدى حكاية قول موسى ان الله كتب لهم الارض المقدسة . ويلحظ ان آية سورة الأعراف قد تضمنت تعليلا لما كان من حكمة الله بوعدهم وإعلانهم انه اورثهم مشارق الارض ومغاربها التي بارك فيها وهو صبرهم واستقامتهم .وقد انحرفوا انحرافات خطيرة اخلاقية ودينية ونقضوا بذلك التعليل الرباني فلم يعد لهم حق بالتمسك بالآية القرآنية والاحتجاج بها فضلا عن الآيات الكثيرة التي تضمنت لعنة الله عليهم وغضبه وايذائه بتشتيتهم في الارض وتسليط من يسومهم سوء العذاب عليهم الى يوم القيامة وكتابته الذلة والمسكنة عليهم لنقضهم مواثيق الله وكفرهم بآياته كما ترى في الآيات التالية :

١ – وضربت عليهم الذلة والمسكنةُ وباؤوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون .

سورة البقرة ٦١

٢ – أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى اشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون . أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون .

سورة البقرة ٨٥–٨٦

٣ – كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا ان الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين. اولئك جزاؤهم ان عليهم لعنة الله والملائكة والناس اجمعين .

سورة آل عمران ٨٦–٨٧

٤ – ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباؤوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الانبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون .

سورة آل عمران ١١٢

٥ – ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل . والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً . من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا لياً بألسنتهم وطعناً في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا .

سورة النساء ٤٤ – ٤٦

٦ – « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا . أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً » .

سورة النساء ٥١–٥٢

٧ – ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك فقد ضل سواء السبيل . فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم ...

المائدة ١٢

٨ – وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل اليك من ربك طغيانا وكفراً وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين .

سورة المائدة ٦٤

٩ – وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم . وقطعناهم في الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون . فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على

الله إلا الحق ودرسوا ما فيه ...

سورة الأعراف ١٦٧–١٦٩

١٠ – وقضينا على بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً . فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا . ثم رددنا لكم الكرة عليكم فأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً . إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فعليها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيراً . عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً .

سورة الإسراء ٤ – ٨

وبناء على هذه النصوص القرآنية لم يبق لتلك الدعوى معنى ووجود من وجهة النظر القرآنية والإسلامية .

ومن الجدير بالذكر أن الإصحاح (٢٦) من سفر الأحبار قد تضمن إنذاراً رهيباً بالنكبات والضربات والشتات وتسلط الأقوياء عليهم وإذلالهم وتدميرهم إذا هم انحرفوا عن وصايا الله وشرائعه . وقد أوردنا نصه في القسم الأول من الكتاب وقد سجلت أسفارهم العديدة الأخرى مثل أسفار القضاة وصموئيل والملوك وأخبار الأيام وحزقيل ودانيال وأرميا انحرافاتهم عن وصايا الله وشرائعه انحرافات خطيرة مما أوردنا نصوصه في القسم الأول من الكتاب كذلك ففقدوا من وجهة نظر أسفارهم ما آذنهم الله به من تفضيل وإرث أيضاً .

سادساً : يكرر رجال اليهود الرسميون الذين يسمون أنفسهم حكومة إسرائيل وأنصارهم معهم هتافهم في كل مناسبة برغبتهم في مصالحة العرب . وفي إحدى سورة الأنفال آية فيها أمر للنبي ﷺ بمقابلة الذي يجنح إلى السلم من الأعداء بالمثل وهي هذه :

(وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم) .

٦١

فتحذيراً للعرب والمسلمين من الانخداع بهتافهم نقول إن الأمر القرآني ينطوي حقاً على مبدأ جليل من المبادىء الإسلامية الخالدة بكون الجهاد الإسلامي هو دفاع ومقابلة عدوان لكفالة سلامة المسلمين وديارهم وحرية الدعوة الإسلامية .

ويكون كل موقف مسالم أو سلمي من عدو يؤدي إلى تحقيق هذا الغرض من شأنه أن يغني عن الحرب .غير أن هذا المبدأ القرآني إنما ينطبق على فريق له دار ودولة خاصة به منذ الأصل وظهر منه موقف عدائي ضد الإسلام والمسلمين. ولا ينطبق على اليهود في فلسطين لأنهم معتدون في الاصل على دار المسلمين والعرب ومغتصبون لما احتلوه من فلسطين اغتصاباً باغياً بمساعدة طواغيت الاستعمار بعد أن حاربوا العرب والمسلمين فيها أشد حرب وآذوهم أشد أذى وطردوهم من مدنهم وقراهم واستولوا على بيوتهم ومزارعهم وبساتينهم وكرومهم وثرواتهم المنقولة وغير المنقولة وقتلوا الآلاف منهم ومنهم أطفال ونساء وشيوخ عزل غير محاربين ومثلوا فيهم أفظع تمثيل وهتكوا حرمات العرب والمسلمين ودنسوا مقدساتهم وأزالوا معالم الإسلام والعروبة . ولم يكن بين العرب وبينهم سابق عداء قبل تفكيرهم في غزو فلسطين وإنشاء دولة على أنقاض العرب والمسلمين فيها . بل كان العرب والمسلمون في ظل السلطان الإسلامي يمنحون من كان منهم في ظل هـذا السلطان الحرية والامان والطمأنينة في حين كانوا وظلوا معرضين للاضطهاد والمطاردة والمصادرة في كل البلاد الاخرى التي كانوا يحلون فيها . فلا ينطبق معنى الجنوح إلى السلم عليهم إذا أعلنوا انهم يريدون الصلح والمسالمة مع العرب والمسلمين مع احتفاظهم بما اغتصبوه من دارهم وأموالهم وبالدولة التي أقاموها على أنقاضهم . ولا يجوز للمسلمين والعرب إجابتهم إلى ذلك حتى لو تركوا بعض ما اغتصبوه واكتفوا بالقسم الذي قررته لهم هيئة الامم لأنه دار المسلمين والعرب. وليس لهيأة الامم أن تمنحهم جزءاً مهما كان صغيراً من هذه الدار. وليس لأحد من المسلمين والعرب حق في قبول ذلك . وأي تساهل في ذلك هو خيانة لله ولرسوله وللمسلمين . وعلى المسلمين أن يحاربوا كل تساهل وكل متساهل وكل ساكت على التساهل والمتساهلين بكل قوة وعنف وبمختلف الوسائل وعليهم واجب إعداد كل قوة يستطيعونها والاستعداد بكل وسيلة لمقاتلة اليهود وتضييق الخناق والحصار عليهم بدون هوادة ولا كلل إلى أن يقوضوا دولتهم ويستردوا ما اغتصبوه من أرض فلسطين المقدسة وأموال أهلها وأملاكهم ويطهروها من رجسهم لتعود إلى السلطان العربي الإسلامي كما كانت .